رماد العراق الاخير

قصة جفاف آبار النفط..انهيار البلد

زياد الغزالي

رواية

رماد العراق الأخير

تأليف

زياد الغزالي

المقدمة

الجزء الأول: صورة أولية لفترة الازدهار النفطي في العراق

كانت سماء العراق، في تلك الأيام، تشهد شمسًا لا تغرب أبدًا. أشعتها الذهبية كانت تنعكس على آفاق الرمال الممتدة بلا نهاية، حيث يشق النفط طريقه إلى السطح، يحمل معه وعدًا بثروة لم تكن في الحسبان. كان الحقول النفطية تُفتح واحدة تلو الأخرى، وأنابيب النفط تتشابك تحت الأرض كعروق ذهبية تنبض بالحياة، تنقل هذا السائل الأسود من أعماق الأرض إلى خزائن الدولة. على السطح، كانت المدن العراقية تزداد بريقًا، كانت الأسواق تزدحم، والشوارع تتزين بالأضواء، والقصور ترتفع في كل زاوية، تعكس نوافذها الواسعة بريق الشمس وتلمع كالنجوم في ليلة صافية.

لكن تحت هذا البريق، كان هناك ظلال طويلة. ظلال منسية تركت على هامش هذا الازدهار. كان الفقراء، الذين استبشروا خيرًا بهذا النفط، يعيشون على أطراف المدن، يراقبون عن كثب تلك التغييرات التي تجري أمام أعينهم، ولكنهم لم يكونوا جزءًا منها. كانوا يشاهدون كيف أن النفط، الذي كان من المفترض أن يكون شريان الحياة، أصبح في الواقع سببًا في تعميق الفجوة بينهم وبين أولئك الذين كانوا يتربعون على قمة السلطة. كان الفقر ينتشر كالوباء، يمتد إلى كل بيت لم يصله نصيب من هذا الذهب الأسود.

في تلك الأيام، كانت الحكومة تعد الشعب بأن النفط هو السبيل للخلاص من الفقر، وأنه سيجلب الرخاء والرفاهية إلى كل ركن من أركان البلاد. كانت الشعارات ترفع في كل مكان: "النفط للجميع"، "ثروة العراق

للعراقيين"، "مستقبل مشرق ينتظرنا". ولكن الشعب، الذي كان يعيش يوميًا واقعًا مختلفًا تمامًا، بدأ يشك في تلك الوعود. كانوا يرون كيف أن الثروة تجمع في أيدي قلة قليلة، بينما تزداد معاناتهم يومًا بعد يوم. كانت المستشفيات تعاني من نقص الأدوية، والمدارس تنهار جدرانها، والطرق تظل غير معبدة. وفي الوقت نفسه، كانت قصور المسؤولين تزداد بريقًا، وتزداد السيارات الفاخرة التي تجوب شوارع المدن الكبرى.

لقد أصبح الازدهار النفطي كالقناع الذي يخفي وراءه حقيقة مرة. الحقيقة أن هذا الازدهار لم يكن سوى سراب، يعد بالرخاء ولكنه يجلب معه الفقر واليأس. كان الشعب ينتظر بفارغ الصبر أن تتحسن أحوالهم، ولكن الأيام كانت تمر، ولا شيء يتغير. بل على العكس، كانت الأحوال تزداد سوءًا، وكانت الثروة التي تتدفق من أعماق الأرض تتحول إلى لعنة تلاحق كل من لم يكن جزءًا من تلك الدائرة الصغيرة التي استفادت من هذا النفط.

في تلك اللحظات، كان النظام الحاكم يستغل كل فرصة لإظهار صورة الازدهار والرخاء. كانت المهرجانات تُقام، والاحتفالات تُنظم، وكان الإعلام يُظهر للعالم أن العراق قد دخل عصرًا جديدًا من الازدهار بفضل النفط. ولكن خلف الكواليس، كانت هناك صفقات مشبوهة تُعقد، وكانت الأموال تُنقل إلى حسابات سرية في بنوك خارج البلاد. كانت الثروات تُنهب، وكانت المشاريع تُعلَن، ولكنها لا تُنفذ. كانت هذه المشاريع تُستخدم فقط لتبرير اختفاء الأموال، وكان الشعب يشاهد كل هذا بصمت، عاجزًا عن فعل أي شيء.

بينما كانت الأضواء تسلط على الاحتفالات والمشاريع التي لا تتحقق، كانت هناك شريحة واسعة من العراقيين تعيش في الظل. كانوا يعانون

بصمت، ينظرون إلى ما يحدث حولهم بعيون ملؤها الحزن والأسى. كانوا يدركون أن هذا الازدهار ليس لهم، وأن النفط الذي يخرج من أرضهم ليس سوى وسيلة لإثراء القلة على حساب الأغلبية. كانوا يرون كيف أن الثروات التي من المفترض أن تُستخدم لتحسين حياتهم تُستخدم فقط لتعزيز سلطة النظام الحاكم.

في تلك الأثناء، كانت آبار النفط تستمر في الإنتاج، وكانت الحكومة تُصدر المزيد من الوعود. ولكن الشعب بدأ يفقد الثقة في تلك الوعود. كانوا يدركون أن النفط، الذي كان من المفترض أن يكون نعمة، أصبح نقمة تلاحقهم في كل مكان. كانوا يرون كيف أن الثروات تُنهب، وكيف أن الفساد ينتشر في كل مؤسسات الدولة. كان النظام الحاكم يستخدم الثروة النفطية كأداة للبقاء في السلطة، دون أي اعتبار لحياة الملايين الذين ظلوا يعانون في صمت.

الجزء الثاني: ملامح الفساد وسوء الإدارة

مع مرور الأيام، بدأ الذهب الأسود يفقد بريقه في عيون الذين كانوا يسعون وراءه. لم يكن النفط بعدُ هو الثروة التي تطمح إليها البلاد لتحقيق نهضة شاملة، بل أصبح أداة لتمكين الفساد وسوء الإدارة. كان النظام الحاكم قد أقام حوائط من السراب، تمنع الشعب من رؤية الحقيقة، حقيقة أن هذه الثروة الهائلة لم تكن تُستخدم لتحسين حياتهم، بل لتغذية آلة السلطة.

كانت الحكومة تدير البلاد كما تُدار الشركات الخاصة؛ كانت الأرباح تتدفق إلى جيوب قلة مختارة، بينما كان البقية يتساقطون في دوامة من

الفقر والحرمان. كانت المدارس تُهمل، والمستشفيات تُترك لتنهار، بينما كانت الأموال تُصرف على مشاريع عملاقة لا تُنفذ إلا على الورق. كان الشعب يتابع هذه المأساة بقلوب مملوءة بالغضب والحيرة. كيف يمكن أن تكون بلادهم، التي تملك ثروة هائلة، عاجزة عن توفير أساسيات الحياة؟

كان الفساد قد تسلل إلى كل زوايا الدولة، من أصغر موظف إلى أعلى المناصب. كانت الرشوة هي العملة السائدة، وكانت المحسوبية هي القانون الذي يُحكم به البلاد. في كل يوم، كان هناك قصة جديدة تُروى عن مسؤول اختلس الأموال، أو مشروع تم إلغاؤه لأن الأموال المخصصة له قد سُرقت. كان الشعب يشعر بالعجز أمام هذا الفساد المستشري، حيث لم يعد هناك من يمثلهم أو يدافع عن حقوقهم.

على مر السنين، كانت البلاد تتراجع ببطء نحو الهاوية. كان النفط، الذي كان من المفترض أن يكون نعمة، قد تحول إلى لعنة. لقد أصبح الشعب يدرك أن هذه الثروة لم تكن سوى فخ نصبه النظام الحاكم، فخٌ يجعلهم يعتمدون على وعود كاذبة، ويمنعهم من المطالبة بحقوقهم. كان كل قرار يتخذ يملى من قمة السلطة، وكان كل قرار يُتخذ بناءً على المصالح الشخصية، وليس لمصلحة البلاد.

في تلك اللحظات الحرجة، حيث كان ينبغي أن يُتخذ القرار الحكيم، كان المسؤولون يغضون الطرف عن الحقائق. كانت هناك تقارير تحذر من أن النفط ليس مورداً لا ينضب، وأنه إذا استمر هذا الإسراف والفساد، فإن البلاد ستواجه كارثة اقتصادية. ولكن في الاجتماعات الحكومية، كانت تلك التحذيرات تُلقى جانبًا، بينما كان المسؤولون يركزون على استغلال ما تبقى من هذه الثروة لتحقيق مكاسب شخصية.

كان الشعب يعيش في حالة من اليأس. كانوا يدركون أن الثروة التي يملكونها تحت أقدامهم تُنهب أمام أعينهم، وأنهم عاجزون عن فعل أي شيء لوقف هذا النهب. كانوا يشاهدون كيف أن الفقر يزداد يومًا بعد يوم، وكيف أن الثروات تتبخر في الهواء، دون أن تترك أثرًا يذكر في حياتهم. كانت الحياة في العراق تتحول إلى كابوس مستمر، كابوس يعيشونه كل يوم، دون أمل في الخلاص.

الجزء الثالث: العواقب الوخيمة للثروة النفطية

وفي ظل هذا المشهد المظلم، كانت هناك علامات تحذيرية تشير إلى أن هذه الثروة النفطية التي اعتمدت عليها البلاد لعقود قد بدأت تتراجع. كان النفط يتدفق من الحقول، ولكنه لم يعد بنفس الغزارة التي كان عليها في السابق. بدأ الخبراء يحذرون من أن العراق قد يكون في طريقه لنضوب النفط، وأن هذه الثروة التي بُني عليها الازدهار الوهمي قد تنتهي قريبًا.

لكن المسؤولين في قمة السلطة، بدلاً من اتخاذ الإجراءات اللازمة للتحضير لهذه الأزمة، كانوا يواصلون حياتهم كأن شيئًا لم يحدث. كانوا يغضون الطرف عن تلك التحذيرات، ويركزون على استغلال ما تبقى من الموارد لتحقيق مكاسب سريعة. كان الشعب يتابع هذه التطورات بقلق شديد، مدركين أن المستقبل قد يحمل في طياته كارثة لا يمكن تفاديها.

كان العراق يتحول ببطء إلى أرض محروقة، لا حياة فيها ولا أمل. كانت الصحراء، التي كانت في يوم من الأيام تحمل في باطنها الذهب الأسود، تبدأ في استعادة سطوتها على البلاد. الرمال كانت تزحف ببطء، تغطي

الطرقات والمباني، وتحول المدن التي كانت تزدحم بالحياة إلى أشباح من الماضي. كان الشعب يحاول الصمود، يحاول الحفاظ على ما تبقى من حياتهم، لكنهم كانوا يدركون أن النهاية قد تكون أقرب مما يتصورون.

في كل يوم، كانت الأوضاع تزداد سوءاً. كان الفقر ينتشر كالنار في الهشيم، وكان الناس يفقدون الأمل في مستقبل أفضل. كانت الحكومة تعلن عن مشاريع جديدة، ولكن الشعب كان يعرف أن هذه المشاريع ليست إلا واجهة للفساد. كانوا يعلمون أن الأموال التي تُخصص لتلك المشاريع ستنتهي في جيوب المسؤولين، وأنهم لن يروا أي تحسينات في حياتهم.

وفي تلك اللحظات المظلمة، بدأ الشعب يفقد الثقة ليس فقط في الحكومة، ولكن في المستقبل نفسه. كانوا يرون أن كل شيء يتحطم من حولهم، وأنهم عاجزون عن فعل أي شيء لإنقاذ بلادهم. كان النفط، الذي كان من المفترض أن يكون نعمة، قد تحول إلى نقمة تدمر كل شيء. كانت الحياة في العراق تتحول إلى كابوس مستمر، وكان الشعب يعيش في ظل هذا الكابوس دون أمل في الاستيقاظ منه.

في النهاية، تحولت العراق إلى أرض بلا ذهب. أرض كانت تمتلك في يوم من الأيام ثروة هائلة، ولكنها ضاعت بسبب الفساد وسوء الإدارة. كانت الأرض نفسها تتحول إلى رماد، وكان الشعب يحاول البقاء على قيد الحياة في هذه البيئة القاسية. لم يعد هناك أمل، ولم يعد هناك مستقبل. كان كل شيء قد ضاع، وكان الشعب يعيش في ظل هذا الخراب، يحاول التمسك بما تبقى من كرامتهم في مواجهة هذا المصير المظلم.

النهاية التي وصل إليها العراق لم تكن سوى نتيجة حتمية لكل ما حدث. لقد دفع الشعب ثمنًا باهظًا بسبب الجشع والطمع الذي ساد في قمة

السلطة. كانت الأرض التي كانت غنية بالثروات قد تحولت إلى أرض جرداء، بلا حياة، بلا أمل. كانت أرض بلا ذهب، وكان الشعب يعيش في ظل هذا الواقع المرير، محاولين البقاء على قيد الحياة في عالم لم يعد يعرف الرحمة.

كان هذا هو المصير الذي حذر منه الكثيرون، ولكنه تجاهل من قبل من كان بيده القدرة على تغيير الأمور. كان هذا هو الثمن الذي دفعه الشعب بسبب الفساد الذي انتشر في كل ركن من أركان الدولة. كانت هذه هي النهاية التي لم يكن يمكن تفاديها، نتيجة لسنوات من الاستغلال والنهب، دون أي اعتبار للمستقبل أو لحياة الملايين الذين عانوا في صمت.

في النهاية، لم يبقَ من العراق سوى أرض جرداء، خالية من أي ثروة. كان النفط قد نضب، وكانت الثروات قد نُهبت، ولم يبقَ للشعب سوى الذكريات المؤلمة عن ما كان يمكن أن يكون. كانت هذه هي النهاية التي وصل إليها العراق، أرض بلا ذهب، وشعب بلا أمل.

الفصل الأول: ذهب ملطخ بالدماء

الجزء الأول: أروقة الفساد والدم المسفوك

في أروقة القصور الفخمة، حيث الجدران مغطاة بالرخام المستورد، والثريات تضيء الأروقة الذهبية بنور بارد كئيب، كانت تُدار الصفقات التي ترسم مصير الأمة بخطوط خفية لا يراها إلا من كان وراء تلك الأبواب المغلقة. هنا، في هذا العالم المنعزل عن معاناة الشعب، كان المسؤولون يتبادلون الابتسامات المتكلفة والمصافحات التي تخفي خلفها نوايا خبيثة. كانوا يتحدثون بلغة المال والسلطة، يخططون بكلمات مسمومة لكيفية اقتسام الغنائم التي تدفقت من جوف الأرض العراقية كأنهار من الذهب الأسود.

كان كل شيء يبدو مُحكمًا، كل خطوة مدروسة بعناية، وكل صفقة تُعقد في جنح الليل، بعيدًا عن أعين الرقباء. الشركات الأجنبية كانت تعرف تمامًا كيف تلعب لعبتها في هذا المسرح الفاسد؛ تقدم الرشاوى بمهارة، تدفع الأموال تحت الطاولة، وتضمن توقيع العقود التي لا تعود بالنفع إلا عليها وعلى أولئك المسؤولين الذين خانوا أمانة الشعب. كان العراق، بأرضه وثرواته، يباع قطعة قطعة في صفقات ملوثة بالدماء، دماء الشعب الذي لم يكن له نصيب سوى المعاناة.

بينما كان المسؤولون الفاسدون يجلسون على موائدهم الفاخرة، يحتسون الخمر، وتعلو ضحكاتهم التي تتردد كأصداء فارغة في القاعات المذهبة، كان فلاح، رجل الأعمال الذي بنى ثروته من خلال استغلال تلك الصفقات المشبوهة، يتواجد بينهم. نظراته كانت ممتلئة بالخبث

والرضا، يعلم جيداً أن كل قطعة ذهب يضيفها إلى خزينته هي ثمرة صفقة مشبوهة، قرار جائر يُتخذ على حساب الفقراء والمحرومين.

فلاح لم يكن يعبأ بما يجري في الخارج. لم تكن تهمه أصوات الأطفال التي تتردد في الشوارع المظلمة، أو أنين المرضى الذين لا يجدون الدواء في المستشفيات المتهالكة. كان يعيش في عالمه الخاص، عالم الثراء الفاحش، حيث تُفتح له كل الأبواب وتمنح له كل الامتيازات. كان يدرك أن النظام سيحميه طالما استمر في ملء جيوبهم بذهب الشعب، وطالما ظل ولاؤه لأولئك الذين يتحكمون في مقاليد السلطة.

وفي مكان آخر من المدينة، بعيداً عن تلك الأروقة الفخمة، كان حسين، العامل البسيط، يقف أمام أبواب مغلقة. لقد أنهكته الأيام، وهو يبحث عن فرصة عمل توفر له لقمة العيش، لكن أبواب الرزق كانت تُغلق واحدة تلو الأخرى. كان يرى بعينيه كيف أن المشاريع التي وعدت الحكومة بتنفيذها لم تكتمل أبداً، وكيف أن الفساد أكل جسد الوطن. كان يدرك أن هذه المشاريع لم تكن سوى حيلة لسرقة أموال الشعب، وأنه مهما اجتهد، فإن جهوده ستضيع هباءً في ظل هذا النظام الفاسد.

حسين، الذي كان يتذكر الأيام التي قيل فيها إن النفط سيكون نعمة للعراق، وكيف أن الثروة ستتوزع بعدل بين جميع أبناء الوطن، كان اليوم يرى الحقيقة المرّة. يرى كيف أن هذه الثروة قد تحولت إلى لعنة، وكيف أن الفقر قد زاد وانتشر في كل ركن من أركان البلاد. لم يعد يملك سوى الغضب الذي يتأجج في صدره، يضيق به كأنه حبل يلتف حول عنقه. كان يعلم أنه ليس وحده من يشعر بهذا الألم، فقد كانت آلامه تتردد في كل بيت، في كل شارع، في كل زاوية من زوايا الوطن.

وفي تلك اللحظات التي كان فيها فلاح يستمتع برغد العيش في قصره، كان حسين يقف في طابور طويل من العاطلين عن العمل، ينتظر دوره في الحصول على فرصة قد لا تأتي أبدًا. كان يشعر بالمهانة، يشعر بأنه قد خُدع، وأن كل تلك الوعود التي أُطلقت لم تكن سوى أكاذيب. ومع ذلك، لم يكن أمامه سوى الصمود، الصمود الذي يكلفه كل شيء، حتى وإن كان ذلك الصمود في وجه مستقبل مجهول.

الجزء الثاني: وجه العراق المتغير

بينما كانت المدينة تستمر في الحياة، نابضة على إيقاع الفوضى التي خلفتها أيادي الفساد، كانت هناك تغيرات خفية تتحرك تحت السطح. في الأزقة الضيقة والأسواق المزدحمة، حيث تنطلق روائح الطعام البسيط الممزوجة برائحة العرق والكدح، كانت العيون تراقب بصمت. كانت أعين العراقيين تحمل قصصًا من الألم والخذلان، قصصًا عن الأحلام التي تكسرت على صخور الواقع المرير، وعن الآمال التي جرفها سيل الفساد والجشع.

في أحد هذه الأزقة، كانت زهراء تسير بخطوات مثقلة، تجر وراءها عربة صغيرة مليئة ببعض الخضروات والفاكهة. كانت الشمس الحارقة ترسل أشعتها على وجهها، لتكشف عن التجاعيد المبكرة التي رسمتها سنوات من الشقاء والمعاناة. كانت زهراء تعلم أن ما تبيعه اليوم بالكاد يكفي لإطعام أطفالها الثلاثة الذين ينتظرونها في المنزل بعيون ملؤها الجوع والبراءة. كانت تلك العربة هي حياتها، هي الأمل الوحيد الذي يمكن أن ينقذ عائلتها من براثن الفقر الذي حاصرهم منذ سنوات.

زهراء، مثل حسين، كانت شاهدة على التغيرات التي طرأت على المدينة. كانت ترى كيف أن الفساد لم يقتصر على الحكومة فقط، بل امتد ليشمل كل جوانب الحياة. كانت ترى كيف أن الناس بدأوا يفقدون إيمانهم بكل شيء، حتى بأبسط القيم التي تربوا عليها. كان الغش والاحتيال قد أصبحا جزءًا من الحياة اليومية، ولم يعد أحد يثق بالآخر. في السوق، كانت ترى كيف أن التجار بدأوا في بيع السلع المغشوشة، كيف أن الأوزان لم تعد دقيقة، وكيف أن كل شخص يحاول أن ينجو بنفسه بأي وسيلة، دون أن يهتم بمصير الآخرين.

كل صباح، كانت زهراء تستيقظ مبكرًا، قبل أن تشرق الشمس، لتجهز عربتها البسيطة وتذهب إلى السوق. كانت تحرص على أن تكون بين أولئك الذين يحصلون على أفضل الأماكن في الزاوية، حيث يتجمع الناس بكثرة. كانت تعلم أن المكان الجيد يعني فرصة أفضل لبيع ما لديها، فرصة أفضل لجمع بعض المال الذي يمكن أن يبقي أطفالها على قيد الحياة ليوم آخر. كانت تعلم أن كل يوم هو معركة، وأن عليها أن تخوضها بكل ما أوتيت من قوة، رغم أن هذه القوة بدأت تضعف مع مرور الوقت.

وفي مكان آخر من المدينة، كان حسين يجلس على حافة أحد الأرصفة، يشعر بالفراغ الذي يملأ حياته. كان قد قضى ساعات طويلة في البحث عن عمل، ولكن دون جدوى. كان يرى نفسه وكأنه أصبح جزءًا من ديكور المدينة، جزءًا من تلك الوجوه الكئيبة التي تمشي في الشوارع دون هدف. كان يسمع القصص التي يتناقلها الناس عن الوعود الكاذبة والمشاريع التي لم تُنفذ، وكان يشعر بأن كل شيء ينهار من حوله، حتى الأمل الذي كان يتمسك به بدأ يتلاشى.

في تلك الزاوية من السوق، كانت زهراء تحاول بيع ما لديها من فاكهة، بينما كانت عيونها تراقب ما يجري حولها. كانت ترى الأطفال الصغار وهم يتجولون بين العربات، يبحثون عن أي شيء يمكن أن يلتقطوه دون أن يلاحظهم أحد. كانت ترى النساء المسنات وهن يجلسن على الأرض، يمددن أيديهن طلبًا للمساعدة، ولكن الناس كانوا يمرون بجانبهن دون أن يعيرونهن اهتمامًا. كانت تشعر بأن العالم قد تغير، وأن الحياة التي كانت تعرفها قد انتهت، وأن ما تعيشه الآن ليس سوى بقايا تلك الحياة، بقايا عالم كان يجب أن يكون أفضل.

في تلك اللحظات، كان حسين يفكر في مستقبله، في ما يمكن أن يحمله له الغد. كان يعلم أن الأمور لن تتحسن قريبًا، وأنه ربما سيظل في هذا الوضع لسنوات قادمة. كان يشعر بالغضب والمرارة، ولكنه كان يعلم أيضًا أن هذه المشاعر لن تغير شيئًا. كان يعلم أن عليه أن يجد طريقًا للخروج من هذا الجحيم الذي أصبح حياته، ولكن كل الأبواب كانت مغلقة، وكل الطرق كانت مسدودة. لم يعد يملك سوى الانتظار، انتظار ما سيأتي به القدر.

وهكذا، في تلك المدينة التي كانت يومًا ما تنبض بالحياة، كانت الأحلام تتلاشى ببطء، وكانت الأرواح تُستنزف يومًا بعد يوم. كان العراق يتحول إلى سجن كبير، حيث الأمل أصبح نادرًا، والخوف هو السيد. كانت المدينة تحمل في أحشائها قصصًا من الألم والمعاناة، قصصًا عن أناس ضاعوا في زحام الحياة دون أن يتركوا أثرًا، قصصًا عن أجيال تكبر دون أن تعرف معنى الأمان أو الرفاهية.

وفي هذا العالم المظلم، كانت زهراء وحسين يحاولان البقاء على قيد الحياة، يحاولان إيجاد معنى في حياة فقدت كل معانيها. كانوا يعرفون أن

الطريق طويل وصعب، ولكنهم كانوا يعلمون أيضًا أن عليهم الاستمرار، حتى وإن كان ذلك يعني المشي في طريق مليء بالظلام والمخاطر. كانوا يعلمون أن الحياة قد لا تكون عادلة، ولكنهم كانوا يعلمون أيضًا أن الصمود هو الخيار الوحيد المتاح أمامهم.

الجزء الثالث: القمع الوحشي للاحتجاجات

في شوارع بغداد الضيقة، حيث يتقاطع الأمل واليأس عند كل زاوية، بدأت أصوات الشعب ترتفع ضد الظلم والفساد. كانت الاحتجاجات تتصاعد يومًا بعد يوم، وكان الشباب يقفون في وجه النظام الحاكم، يطالبون بحقوقهم المسلوبة وبمستقبل أفضل لأبنائهم. كانت تلك الاحتجاجات تتخذ من الساحات العامة مسرحًا لها، حيث يلتقي الناس من مختلف الطبقات والأعمار، متحدين تحت راية واحدة: راية العدل والكرامة.

كان الغضب الشعبي يتراكم منذ سنوات، يشتعل في قلوب الفقراء والمظلومين كالنار تحت الرماد. في البداية، كانت الاحتجاجات سلمية، تنادي بالإصلاح والتغيير، ولكن سرعان ما واجهت هذه الأصوات القوية قمعًا وحشيًا من قوات النظام. كانت شوارع المدينة تتحول إلى ساحات معارك غير متكافئة، حيث ترددت أصوات الرصاص في الأرجاء، وأضاءت السماء بنيران القنابل المسيلة للدموع التي تُطلق بلا رحمة.

كانت زهراء، التي اعتادت الذهاب إلى السوق كل يوم، ترى عن كثب كيف أن هذه الاحتجاجات كانت تمثل الأمل الأخير للكثيرين ممن فقدوا

كل شيء. كانت ترى الشباب يقفون صفوفًا، يحملون لافتات مكتوبة بدماء الشهداء الذين سقطوا في الأيام السابقة. كانت تسمع هتافاتهم التي تملأ الشوارع، تنبض بقوة الحق والعدالة، وتطالب بإسقاط الفساد الذي نخر في عظام الوطن.

لكن النظام لم يكن ليسمح لهذه الأصوات بأن تستمر. جاءت الأوامر بقمع الاحتجاجات بأي وسيلة، حتى لو كان الثمن هو حياة أولئك الذين تجرأوا على المطالبة بالحرية. في صباح أحد الأيام، بينما كانت زهراء في طريقها إلى السوق، سمعت صرخات تدوي في الأفق، ورأت الناس يركضون في كل اتجاه. كانت قوات الأمن قد هجمت على المتظاهرين بكل قوة، تطلق النار بلا تمييز، وتعتقل كل من تجرأ على البقاء في الشارع.

في وسط هذا العنف، كان حسين قد قرر الانضمام إلى الاحتجاجات بعد أن سمع كيف أن النظام ينهب ثروات البلاد ويدمر مستقبلها. كان يعلم أن الخروج إلى الشارع يعني المخاطرة بحياته، ولكنه لم يعد يرى في حياته ما يستحق الحفاظ عليه سوى كرامته التي سلبها منه الفساد. كان يقف في الصفوف الأمامية، يهتف بأعلى صوته مع زملائه، متحدين الرصاص والهراوات التي كانت تنهال عليهم من كل جانب.

كانت اللحظات تمر ببطء، كل ثانية تبدو وكأنها دهور. كان الدخان يتصاعد من كل مكان، وكان صوت الرصاص لا يتوقف. رأى حسين زملاءه يسقطون واحدًا تلو الآخر، لكن ذلك لم يثنه عن مواصلة الهتاف. كانت عيناه تلتقيان بعيني زهراء، التي كانت تراقب من بعيد بعينين تملؤهما الدموع. كانا يدركان أن هذه اللحظة قد تكون الأخيرة، لكنهما كانا أيضًا يعلمان أن الصمت لم يعد خيارًا.

في نهاية اليوم، كانت الشوارع تفيض بالدماء. الأجساد كانت متناثرة على الأرض، والدموع كانت تنهمر من عيون الأمهات اللاتي فقدن أبناءهن في هذه المعركة غير المتكافئة. كان النظام قد أرسل رسالة واضحة: أي صوت يرتفع ضد الظلم سيتم إسكاتُه بالقوة. كانت زهراء قد فقدت أملها في السوق ذلك اليوم، بينما كان حسين قد فقد الكثير من أصدقائه، لكنه لم يفقد إرادته.

في تلك الليلة، بينما كانت المدينة تغرق في صمت مخيف، كان حسين يفكر في كل ما حدث. كان يعلم أن النضال لم ينته بعد، وأن القمع لن يوقفه هو وزملاؤه عن المطالبة بحقوقهم. كان يعلَم أن الطريق طويل وصعب، ولكنه كان مصممًا على مواصلة الكفاح من أجل العراق، من أجل مستقبل لا يتحدد بقوة الفاسدين بل بإرادة الشعب.

كانت زهراء، من جانبها، تجلس بجوار أطفالها، تحاول أن تخفي عنهم حقيقة ما رأته في ذلك اليوم. كانت تعلم أن هذه الأرض، رغم ما يمر بها من مآس، لا تزال تستحق القتال من أجلها. كانت تعلم أن الصمود هو السبيل الوحيد للبقاء، وأن الأمل، وإن بدا ضعيفًا، لا يزال ينبض في قلوب العراقيين.

الفصل الثاني: بداية النهاية

الجزء الأول: إشارات من الغد القاتم

في قاعات الحكم المغلقة، حيث يخيم الصمت الثقيل ويتسلل الضوء الخافت عبر الستائر الكثيفة، كانت التقارير تتوالى على مكاتب المسؤولين، تحمل في طياتها نذرًا من الغد القاتم. كانت الأوراق تتكدس على الطاولات العريضة، مليئة بالأرقام والتحذيرات التي تروي قصة نضوب محتمل، قصة لن تكتبها الأيدي الفاسدة على صفحات المستقبل. كانت تلك التقارير صوت الأرض الذي يخفت، وصدى آبار النفط التي بدأت تئن تحت وطأة الاستنزاف المستمر، وكأنها تحذر من كارثة تلوح في الأفق القريب.

رائحة السجائر الثقيلة تملأ الغرفة، تلتف حول الوجوه المتجهمة التي تتابع الشاشات بأعين زائغة، بينما صوت الأوراق المتناثرة يكاد يغرق في همسات المسؤولين المتآمرين. كانوا يعرفون أن هذه التحذيرات ليست مجرد كلمات على ورق، بل إشارات من جسد العراق الذي بدأ يفقد نبضاته، كما يفقد المريض حياته ببطء. لكن الطمع المتأصل في نفوسهم كان يرفض الاعتراف بالهزيمة، يغريهم بمزيد من الثراء قبل أن تغلق الأرض أبوابها أمامهم.

كل مسؤول منهم يحمل على كتفيه عبء طموحاته الشخصية، يسعى للاستفادة القصوى من موارد البلاد قبل أن يجف هذا النهر الذي ظنوه لا ينضب. كان كل واحد منهم يعلم في قرارة نفسه أن الزمن لن يرحمهم، ولكنهم استمروا في طريقهم المظلم، غير مبالين بالعواقب. كانت الاجتماعات المغلقة مسرحًا لتلك المؤامرات، حيث تُلقى التقارير جانبًا،

مثل أوراق خريفية تتساقط بلا قيمة، بينما تتزايد أرقام حساباتهم البنكية يومًا بعد يوم.

في تلك الأثناء، كانت آبار النفط تئن تحت الأرض، تنظر إلى الأعلى، إلى السطح الذي اعتقد سكانه أن الثروة لا تنضب، وترسل إشاراتها إلى من لا يريد الاستماع. كانت تتراجع كما تتراجع الحياة من جسد مريض، تاركة خلفها فراغًا لن يملأ إلا بالدموع والدماء. في الشوارع، كان الناس يشعرون بشيء ما يتغير في الهواء، شيء ثقيل ومظلم. كان الشك يزداد في عيون الباعة المتجولين، وكأنهم يعلمون أن هذا النفط الذي أملوا فيه يومًا قد بدأ في الخيانة.

لكن، وكما جرت العادة، لم تكن الآذان تصغي، ولا العقول تُدرك حجم الخطر. كان النظام، كجسد ضخم مترهل، يسير بخطى واثقة نحو هاوية لا رجعة منها. لم يكن هناك مكان للعقل أو التخطيط، بل كانت القرارات تُتخذ في عجلة، تُسيّرها مصالح شخصية وأطماع لا تعرف شبعًا. في الاجتماعات المغلقة، حيث تحاك المؤامرات وتُنسج الأكاذيب، كانت تلك التقارير تُلقى جانبًا، مثل أوراق خريفية لا قيمة لها.

بينما كانت تقارير نضوب النفط تتكدس في مكاتبهم، كان المسؤولون يتسابقون لإبرام صفقات جديدة، يوقعون العقود بأيد مرتعشة من فرط الجشع، غير مبالين بما ستؤول إليه البلاد عندما يجفّ الذهب الأسود. كانت العيون لا ترى سوى الأرقام في حساباتهم البنكية التي تتضخم يومًا بعد يوم، بينما كانت أعين الشعب تُغلق رويدًا، تتلاشى فيها بقايا الأمل التي لم يتبق منها سوى رماد الذكريات.

في النهاية، كانت بداية النهاية تُكتب بأيد جاهلة، تتجاهل ما يجب أن يُفعل، وتسعى فقط لتحقيق المزيد من المكاسب قبل أن يُغلق هذا الفصل

من تاريخ العراق. كانت الحياة تتسلل من بين أيديهم كما يتسلل الرمل من بين الأصابع، تاركة خلفها فراغًا لا يمكن ملؤه. كان المستقبل يُكتب على جدران الزمن، بأحرف من دماء الفساد، يخطه أولئك الذين لم يروا في هذا الوطن سوى فرصة للنهب والثراء، غير مبالين بما سيخلفونه للأجيال القادمة من خراب ودمار.

الجزء الثاني: التجاهل والمكاسب الشخصية في خضم الأزمة

بينما كانت التقارير التي تحذر من نضوب النفط تتراكم كالأوراق المتساقطة في الخريف، كان التجاهل هو الرد السائد في أروقة الحكم. لم تكن التحذيرات التي تتحدث عن مستقبل البلاد على رأس أولويات المسؤولين، بل كانت تُعتبر مجرد ضجيج غير مرغوب فيه يُعكر صفو مخططاتهم. في كل مرة كانت التقارير تُقرأ فيها، كانت تُقابل بالتنهدات المتكلفة أو بتجاهل صريح، وكأن هذه الأصوات التي تنذر بالكارثة ليست سوى وهم يُطارد من لا يملك الجرأة على مواجهة الحقيقة.

في تلك الاجتماعات، التي كان من المفترض أن تكون ساحة للتخطيط ورسم السياسات المستقبلية، كانت الصفقات الفاسدة تُعقد دون اكتراث بمصير البلاد. كان المسؤولون يمعنون في استغلال ما تبقى من موارد النفط، وكأنهم في سباق مع الزمن، يسعون لتحقيق أكبر قدر من المكاسب قبل أن ينتهي كل شيء. كانوا يعلمون أن النهاية قادمة، ولكنهم اختاروا أن يتجاهلوا ذلك، مفضلين الاستمتاع بملذات الحاضر على حساب مستقبل لن يكونوا جزءًا منه.

كانت الاجتماعات مغلقة، والوجوه متعبة من شدة الحذر، بينما الأعين تدور في المكان كأنها تبحث عن خيط ينقذها من الفخ الذي أوقعوا فيه أنفسهم. كانت الأقلام تكتب عقوداً جديدة، توقع بمزيد من التنازلات، ومزيد من البيع لثروات البلاد لمن يدفع أكثر. لم يكن هناك حديث عن مستقبل الشعب، عن الخطط اللازمة لإدارة الأزمة، أو حتى عن كيفية التعامل مع ما سيأتي بعد نضوب النفط. كان الحديث يدور فقط حول الأرقام، حول الأرباح التي يمكن جنيها الآن، حول الأموال التي يمكن تهريبها إلى الخارج قبل أن ينهار كل شيء.

وفي خضم هذا الاستغلال الممنهج للثروات، كانت هناك فئات أخرى في المجتمع تسعى لتحقيق مكاسب شخصية على حساب الأزمة. رجال الأعمال المقربون من السلطة، الذين تعلموا من كبار المسؤولين كيف تُدار اللعبة، بدأوا في استغلال الوضع لصالحهم. كانوا يشترون الأراضي التي ستفقد قيمتها قريبًا بأثمان بخسة، ويمارسون احتكارًا خفيًا للسلع والخدمات التي بدأت تتناقص تدريجيًا. كانوا يستغلون الفوضى ويستثمرون في الفقر والعوز، متأكدين أن النظام سيحميهم كما حمى من قبلهم من قبل.

كان البعض يرى في الأزمة فرصة ذهبية لتحقيق ثروات سريعة، لم يكن الوقت يسمح بتضييعها في التفكير بأخلاقيات العمل أو في مصير البلاد. كانت السوق السوداء تزدهر، والأسعار ترتفع بلا رقيب، بينما كان الفقراء يُسحقون تحت وطأة الاحتياجات الأساسية التي أصبحت فجأة رفاهية. لم تكن الأزمة مجرد كارثة وطنية تلوح في الأفق، بل كانت بالنسبة لهؤلاء فرصة، فرصة لمضاعفة المكاسب وتحقيق أرباح لا يمكن أن تتكرر.

في شوارع بغداد، كانت الحياة تستمر كأنها لا تعلم ما يُحاك خلف الأبواب المغلقة. كان الناس يكافحون في كل يوم لتأمين قوتهم، غير مدركين تمامًا أن ما يجري فوق رؤوسهم أكبر بكثير من أي أزمة سابقة. كانوا يشعرون بالضغط المتزايد، يرون الأسعار ترتفع والموارد تتناقص، ولكنهم لم يعرفوا السبب الحقيقي وراء ذلك. كل ما كانوا يرونه هو آثار القرارات التي تُتخذ في تلك الاجتماعات المغلقة، حيث لا مكان للشعب في حسابات الذين يُقررون مصيره.

وفي ظل هذه الأجواء المشبعة بالجشع، كانت الكارثة تقترب أكثر فأكثر، تتشكل كظل ثقيل يزحف ببطء نحو الأمة. لم يكن التجاهل سوى بداية سلسلة من الانهيارات التي ستتوالى تباعًا، ولم تكن الصفقات الفاسدة سوى الشرارة التي ستشعل حريقًا لا يمكن إطفاؤه. كان الجميع، من كبار المسؤولين إلى رجال الأعمال، يضعون نصب أعينهم هدفًا واحدًا: الاستفادة القصوى من الأزمة قبل أن يسقط الستار على مسرح البلاد بأكمله.

أما الشعب، فقد كان يعيش في عالم آخر، عالم لم تكن فيه هذه الحقائق واضحة أو مفهومة. كانوا يرون فقط النتائج، يشعرون فقط بالمعاناة، ولكن دون أن يفهموا الأسباب. كان الفقر يتسلل إلى البيوت كضيف ثقيل، بينما كان الأغنياء يزدادون غنى، يستمتعون بمكاسبهم التي حققوها على حساب الجميع. كان المستقبل يُباع في السوق السوداء، حيث لا مكان للضعفاء، وحيث يُحدد سعر الحياة بأرقام لا يستطيع الفقراء دفعها.

وبينما كان الجميع يلهث وراء مصالحه الشخصية، كانت البلاد تتجه بخطى ثابتة نحو المجهول. لم يكن هناك من يتساءل عن غدٍ أفضل، أو

حتى عن اليوم التالي، لأن الجميع كان يعلم أن الحاضر هو كل ما يملكون، وأن الغد قد لا يأتي أبدًا. كانت النهاية تُكتب بيد من اختاروا أن يعموا عن الحقيقة، وأن يستغلوا الأزمة حتى آخر قطرة، غير عابئين بما سيأتي بعد ذلك، لأنهم، ببساطة، كانوا يعلمون أن نهايتهم ستكون بعيدة عن هذا المشهد، في مكان آخر، حيث يستطيعون الاستمتاع بثرواتهم التي جمعوها على حساب وطن يُحتضر.

الجزء الثالث: مشاهد جانبية من زوايا مظلمة

في تلك الغرفة المعزولة في قصر الحكم، حيث تغيب الشمس ويحل الظلام، كانت الأضواء الخافتة تتراقص على جدران مزخرفة، متشابكة مع ظلال المسؤولين الذين تجمعوا حول طاولة مستديرة. كان الهواء ثقيلا برائحة التبغ والعطر الفاخر، بينما الأصوات منخفضة تتمازج كأنها تهمس بأسرار لا يجب أن تُسمع خارج هذه الجدران. أوراق وتقارير تحمل في طياتها حقيقة مرعبة: نضوب النفط الذي طالما اعتمدت عليه البلاد بات قريبًا، أقرب مما يتصورون.

في تلك اللحظة، وقف أحد الخبراء، رجل ذو نظارات سميكة ووجه يحمل علامات القلق العميق، ليقدم تقريره بصوت جاد، لم تكن فيه أي تردد. "السادة، نحن نواجه أزمة وشيكة. النفط الذي كان يُعتقد أنه لا ينضب، بدأ في الانخفاض بمعدلات مخيفة. إذا لم نتخذ إجراءات فورية، فسنشهد انهيارًا اقتصاديًا لا مفر منه".

الكلمات كانت ثقيلة، تحمل بين جوانحها حقيقة صادمة، ولكن المسؤولين الذين يستمعون له، كانت أعينهم جامدة، خالية من أي رد

فعل. كانت نظراتهم تتجنب النظر مباشرة إلى الخبير، وكأنهم يرفضون أن يكونوا شهوداً على هذه الحقيقة المرعبة.

في زوايا الطاولة، تبادل بعض المسؤولين نظرات متواطئة، بينما انشغل آخرون بتقليب الأوراق أمامهم، وكأنما ما سمعوه لا يستحق أن يُخزن في عقولهم المثقلة بالتخطيط لجمع المزيد من الثروات. في أعماقهم، كانوا يعلمون أن ما يُقال ليس سوى صدى لما يعرفونه جيداً، لكن جشعهم ولامبالاتهم كانت تحجب عنهم أي إحساس بالمسؤولية.

وفجأة، كسر الصمت ضحكة مكتومة من أحدهم، كانت ساخرة، ومليئة بالاستهانة. "لماذا هذا القلق كله؟ لا زال لدينا ما يكفي لسنوات قادمة." قالها بابتسامة خبيثة تتراقص على شفتيه، ثم أضاف بنبرة واثقة، "إنه وقت جني الثمار، وليس وقت الهلع. دعوا هذه التقارير للبيروقراطيين، أما نحن، فعلينا الاستفادة من هذه الفرصة إلى أقصى حد".

بدأت الهمسات تتصاعد، وتحولت قاعة الاجتماع إلى ساحة للنقاش حول كيفية استغلال ما تبقى من الثروات. لم يكن هناك اهتمام بحقيقة النضوب الوشيك، بل كان التركيز كله منصبًا على العقود والصفقات التي يمكن أن تُبرم في أسرع وقت، قبل أن ينكشف الواقع أمام الجميع. كانت الأوراق، التي تحذر من الكارثة، تُطوى وتُلقى جانبًا، مثل أوراق خريفية لا قيمة لها.

وفي تلك اللحظة، كان الجشع يعمي الأبصار، والآذان مغلقة عن سماع أي شيء سوى أصوات الأموال وهي تتدفق في حساباتهم البنكية. لم يكن أحد منهم يهتم بالكارثة التي ستصيب الوطن، لأنهم كانوا يعلمون أنهم لن يكونوا هنا عندما يحدث ذلك. كانت الابتسامات المتكلفة

والضحكات المكتومة تعبر عن شعور بالانتصار، وكأنهم نجحوا في خداع الزمن نفسه.

على بعد أميال من تلك القصور المزخرفة، في حقول النفط التي تمتد بلا نهاية، كان ياسر يقف أمام آلة ضخ النفط، يراقبها وهي تتباطأ بشكل لم يعهده من قبل. كانت المضخات التي اعتادت أن تزأر كوحوش جائعة، قد بدأت تخفت زئيرها، وكأنها تئن من فرط التعب. قطرات النفط التي كانت تتدفق بغزارة بدأت تنقص، وكأن الأرض نفسها قد قررت أن تكتم أنفاسها.

ياسر، العامل البسيط الذي قضى سنوات طويلة في هذه الحقول، شعر بشيء غريب في الهواء، شيء يضغط على صدره ويجعله يتنفس بصعوبة. كان يشعر أن هذه الأرض التي كانت يومًا ما كريمة في عطائها، قد بدأت في الانسحاب. لم يكن ذلك مجرد عطل في الآلات، بل كان علامة على شيء أكبر، شيء لا يمكن إصلاحه.

حاول أن يقنع نفسه بأن الأمور ستتحسن، وأن هذه مجرد مشكلة تقنية سيتم حلها قريبًا، ولكن شيئًا في داخله كان يخبره بالعكس. كان ياسر، الذي اعتاد على رائحة النفط الثقيلة تملأ أنفه كل يوم، يدرك أن تلك الرائحة أصبحت أخف، وأن النفط الذي كان ينبض في عروق الأرض قد بدأ يجف. كانت الأرض، التي طالما أعطت، ترفض الآن أن تعطي المزيد.

في تلك الليلة، عاد ياسر إلى منزله وهو يحمل شعوراً بالقلق لم يعتده من قبل. جلس على عتبة بيته المتواضع، ينظر إلى السماء، التي كانت تتشح بالسواد، وكأنها تعكس مستقبله الذي بدأ يتضح أمامه. كان يعلم أن الأيام القادمة لن تكون سهلة، وأن عليه أن يستعد لمواجهة واقع جديد،

واقع قد يكون أكثر قسوة مما عاشه من قبل. في داخله، كان هناك صراع بين الأمل الذي يحاول التمسك به، وبين اليأس الذي بدأ يتسلل إلى قلبه.

بينما كانت السماء تزداد ظلمة، كان ياسر يشعر أن الحياة كما عرفها قد بدأت تتغير، وأنه، كغيره من العمال البسطاء، سيواجهون أيامًا أصعب بكثير مما مروا به في السابق. كان يعلم أن هذه الأرض التي طالما أعطت بسخاء، قد بدأت في رفض عطائها، وأن النفط الذي كان يُعتبر نعمة، قد تحول إلى لعنة لا يمكن التخلص منها.

في مكان آخر من المدينة، بعيدًا عن حقول النفط وغرف الاجتماعات المغلقة، كان فلاح، رجل الأعمال الذي صنع ثروته من خلال الصفقات المشبوهة واستغلال النفوذ، يجلس في مكتبه الفاخر، محاطًا بالرفاهية التي جناها من دماء الناس. كانت أفكاره مشغولة بكيفية تحقيق المزيد من المكاسب في ظل الأزمة التي بدأت تلوح في الأفق. كان يعلم جيدًا أن نضوب النفط يعني نهاية عصر من الثروات السهلة، ولكنه رأى في هذا الوضع فرصة جديدة لجمع الثروات.

قرر فلاح أن يستغل الأزمة بطريقته الخاصة. بدأ بشراء الأراضي التي فقدت قيمتها بسبب الأخبار عن نضوب النفط، واحتكر السلع الأساسية التي يعرف أنها ستصبح نادرة قريبًا. لم يكن يهتم بالناس الذين سيتضررون من احتكاره، كل ما كان يشغله هو كيف يمكنه أن يضاعف ثرواته في أسرع وقت ممكن. كان يرى في الأزمة فرصة ذهبية، فرصة يجب استغلالها قبل فوات الأوان.

لكن في خضم انشغاله بالمكاسب الجديدة، مرت في ذهنه صورة مريم، الشابة التي عملت معه في أحد مشاريعه، والتي فقدت الأمل في مستقبل

بلادها. كانت كلماتها تتردد في أذنيه، كلمات قالتها له في يوم من الأيام، بنبرة يائسة مليئة بالمرارة: "كل شيء سينهار قريبًا، هذا الوطن لم يعد وطنًا، بل ساحة للموت والخراب".

كان يعلم أن مريم لم تكن مخطئة، وأنها كانت ترى ما رفض هو رؤيته. ولكن الطمع الذي كان يملأ قلبه لم يسمح له بالتفكير فيما قد يحدث بعد أن ينتهي النفط ويبدأ الانهيار. كان يرى أن بإمكانه النجاة من أي أزمة، طالما لديه المال والسلطة. لكنه في أعماق نفسه، كان يشعر أن هذه اللعبة التي يلعبها خطرة، وأن النهاية قد تكون أقرب مما يتوقع.

في تلك الليلة، وبينما كان يفكر في صفقاته القادمة ويحصي أمواله، كانت مريم تقف على شرفة منزلها المتواضع، تنظر إلى الأفق البعيد حيث تلتقي السماء بالأرض، وتشعر أن كل شيء ينهار من حولها. كانت ترى في الظلام الذي يلف المدينة شيئًا أكبر من مجرد نضوب النفط. كانت ترى انهيارًا شاملاً لكل ما كانت تأمل فيه.

مريم، التي كانت تحلم يومًا بمستقبل أفضل، بدأت تشعر بأن هذا المستقبل لم يعد موجودًا. كانت ترى في كل زاوية من زوايا مدينتها علامات النهاية، وكأنها تقف على حافة هاوية لا قرار لها. كانت تعرف أن الغد لن يكون أفضل، وأن كل شيء قد انتهى قبل أن يبدأ.

وبينما كان فلاح يخطط لكيفية الاستفادة من الأزمة، كانت مريم تفقد آخر بقايا الأمل في قلبها. كانت تعلم أن الأيام القادمة ستأتي بمزيد من الظلام، وأن الوطن الذي حلمت به لم يعد له وجود في هذا العالم القاسي.

وفي تلك اللحظات التي كانت المدينة تغرق فيها في صمت مخيف، كان حسين ومريم، كل بطريقته، يحاولان فهم ما سيأتي به الغد. كانت

أفكارهم متشابكة، مليئة بالخوف والشك، لكنهم كانوا يعلمون أن الغد سيحمل معه تحديات جديدة، وأنهم سيضطرون لمواجهتها، حتى وإن كانوا يعرفون أن النتيجة قد لا تكون في صالحهم.

وهكذا، كانت المدينة تئن تحت وطأة هذه الأزمة القادمة، حيث يستمر الجشع في تحطيم ما تبقى من أحلام، وحيث تبدأ الأرواح في الاستسلام لما لا يمكن تغييره. كان كل شيء يتجه نحو المجهول، وكانت النهاية تلوح في الأفق، باردة وقاسية كليلة شتاء لا نهاية لها. .

الفصل الثالث الانهيار الكامل.

الجزء الأول: بداية الانهيار الاقتصادي

كانت الأيام تمر ببطء شديد، كأن الزمن نفسه قد توقف ليشهد على الكارثة التي تتكشف تدريجيًا أمام أعين الجميع. الهواء في المدينة كان مشحونًا، مشوبًا برائحة اليأس والقلق، وكأن العاصفة التي لطالما حذر منها البعض قد بدأت أخيرًا تضرب بكل قوتها. مع كل شروق للشمس، كان العبء يزداد على كاهل الناس، وكان الأمل الذي تعلقوا به يتبدد شيئًا فشيئًا تحت وطأة الحقيقة القاسية: النفط، الشريان الذي كانت البلاد تعتمد عليه، بدأ ينضب. ومع نضوبه، بدأت الحياة كما عرفها العراقيون تتلاشى.

الشركات الكبرى التي ازدهرت بفضل الثروة النفطية بدأت تُغلق أبوابها واحدة تلو الأخرى. المصانع التي كانت تصدح بأصوات الآلات ليل نهار، باتت صامتة، وكأنها تحتضر ببطء. المباني التي كانت تعج بالحركة والحياة أصبحت مهجورة، يكسوها الغبار، لتصبح رموزًا صامتة لعهد مضى. العمال، الذين كانوا يعتمدون على تلك المصانع لإعالة أسرهم، وجدوا أنفسهم فجأة بلا عمل، بلا دخل، وبلا أمل في مستقبل أفضل. كانت نظراتهم خاوية، وجوههم شاحبة، وكأن الحياة قد سُرقت منهم وهم على قيد الحياة.

في شوارع المدينة، كانت الفوضى تتسلل ببطء لكنها بثبات. أصوات الشجار بدأت ترتفع في طوابير الخبز والماء، الناس يتدافعون بلا رحمة للحصول على ما يكفي لإعالة أسرهم ليوم آخر. ولكن ما بدأ كتوتر بسيط في الطوابير تحول بسرعة إلى صراع مفتوح. الاشتباكات اندلعت على أبسط الأمور، ومع كل يوم كانت حدة الفوضى تتصاعد. في كل

زاوية من زوايا المدينة، كانت هناك مشاهد من الفوضى تعكس الانهيار الشامل الذي بدأت تشهده البلاد.

الضجيج الذي كان يملأ الشوارع لم يكن ناتجًا فقط عن النزاعات بين الناس، بل كان أيضًا صدى لتلك القرارات التي كانت تُتخذ في القصور البعيدة، حيث المسؤولون يغلقون أبوابهم على أنفسهم، غير عابئين بما يحدث خارج أسوارهم العالية. كانوا يراقبون من بعيد، منشغلين بجمع الثروات والاستفادة من الفوضى لصالحهم، بينما كانت البلاد تغرق في أزمة لا نهاية لها.

ومع تفاقم الأزمة، بدأت الجريمة تنتشر كالنار في الهشيم. لم يكن هناك عمل، ولم يكن هناك مال، مما دفع البعض إلى اللجوء إلى السرقة والنهب كوسيلة للبقاء على قيد الحياة. الأحياء التي كانت تعيش في ظل القانون والنظام، تحولت إلى مناطق خارجة عن السيطرة، حيث أصبحت الشوارع ملكًا للعصابات واللصوص الذين كانوا يستغلون الوضع لمصلحتهم. كانت الشرطة، التي كانت في السابق تحافظ على الأمن، عاجزة عن التصدي لهذا المد من الفوضى، وأصبح القانون مجرد ذكرى من زمن مضى.

في هذه اللحظات العصيبة، كانت الأسر تعيش في رعب مستمر، لا تعرف ما إذا كانت ستتمكن من النجاة في اليوم التالي أم لا. كانت الأمهات يسهرن ليلاً على أطفالهن، يحاولن حماية ما تبقى من طعام وماء، بينما كان الرجال يسعون بلا جدوى للبحث عن عمل أو وسيلة لإطعام عائلاتهم. كان كل شيء قد تغير، حتى الهواء في المدينة أصبح ثقيلا، مشبعًا بالخوف والتوتر، وكأن المدينة نفسها تتنفس بصعوبة، تتألم من الجروح التي لا تلتئم.

كانت الكهرباء تأتي لساعات قليلة في اليوم، إذا جاءت أصلاً. البيوت التي كانت تضاء ليلا بأنوارها أصبحت غارقة في الظلام، لتزداد الوحشة ويزداد الشعور بالعزلة. كان الناس ينتظرون كل يوم بقلق، متسائلين عما سيحدث بعد ذلك، بينما كانت الأخبار تأتي بمزيد من الأخبار السيئة: نقص حاد في الوقود، تضخم الأسعار إلى حد لا يمكن تحمله، وانعدام الأمان في كل مكان. لم يكن هناك شيء يمكن الاعتماد عليه، كل شيء كان ينزلق من بين أيدي الناس كالرمال.

في الأحياء الفقيرة، كانت العائلات تكافح من أجل البقاء. كان الأطفال يبكون من الجوع، بينما كانت الأمهات تحاولن تهدئتهم بأغنيات قديمة، تحمل في جوفها ذكريات من زمن كان أفضل. كان اليأس يتسلل إلى القلوب ببطء، وكل يوم كان يأتي بمزيد من التحديات التي لا يبدو أن هناك مخرجًا منها.

وبينما كانت البلاد تغرق في هذه الأزمة المتفاقمة، كان هناك من يستغل الوضع لمصلحته الخاصة. فلاح، رجل الأعمال الذي لطالما استفاد من الفساد، كان يعد العدة للهرب بأمواله إلى الخارج. لم يكن لديه أي نية للبقاء في بلد ينهار تحت وطأة الفقر والجوع. كان يعرف أن الزمن قد حان للرحيل، وأن الفرصة التي انتظرها قد جاءت أخيرًا. بينما كان الناس يكافحون من أجل البقاء، كان فلاح يحزم حقائبه، مستعدًا لترك كل شيء خلفه والفرار بما جمعه من ثروات.

كان الانهيار الاقتصادي أكثر من مجرد أرقام تتراجع في التقارير الاقتصادية. كان يعني أن الحياة بأكملها قد أصبحت في مهب الريح، وأن الأمان الذي كان الناس يشعرون به قد تلاشى. كان يعني أن الفوضى قد أصبحت هي القاعدة، وأن القانون والنظام قد أصبحا مجرد ذكرى.

كانت هذه بداية النهاية، والبلاد كانت تتجه بخطى ثابتة نحو المجهول، حيث لا شيء يمكن أن يوقف هذا السقوط الحر نحو الهاوية.

الجزء الثاني: الفوضى والجريمة

كان الشارع الذي كان يعج بالحياة في السابق قد تحول إلى ساحة للفوضى. كانت النوافذ مكسورة، والواجهات التي كانت تزين المتاجر مغلقة بإحكام، حيث لم يعد هناك شيء يُباع أو يُشترى. كان الناس يتنقلون في الشوارع بعيون مملوءة بالخوف، يراقبون بعضهم البعض بحذر، وكأن كل شخص يشتبه في الآخر. الجوع والاحتياج كانا يتسربان إلى النفوس، يفرضان واقعًا جديدًا كان من الصعب على الجميع التكيف معه.

مع تدهور الأوضاع الاقتصادية، بدأت معدلات الجريمة في الارتفاع بشكل مخيف. لم يعد الأمر مقتصراً على السرقات البسيطة، بل تحولت إلى هجمات منظمة على المنازل والمتاجر، حيث كانت العصابات المسلحة تجوب الشوارع بلا رادع. كان الخوف يسيطر على كل زاوية من زوايا المدينة، والناس يعيشون تحت تهديد دائم من اللصوص والمجرمين الذين كانوا يتزايدون يومًا بعد يوم.

كان ياسر، الذي فقد وظيفته في مصنع النفط بعد أن توقف الإنتاج، يعيش هذا الواقع بكل تفاصيله المريرة. في البداية، حاول البحث عن عمل آخر، ولكنه سرعان ما أدرك أن كل الأبواب قد أغلقت في وجهه. لم يكن هناك مكان يذهب إليه، ولا وسيلة لتأمين لقمة العيش لأسرته. بدأ يشعر بأن الخيارات تتقلص أمامه، وأنه يقترب من نقطة لا عودة.

في أحد الأيام، وبينما كان يتجول في شوارع المدينة بلا هدف، التقى بأحد زملائه القدامى من المصنع، الذي كان يعيش وضعًا مشابهًا. جلسا معًا في زقاق ضيق، يتحدثان عن الأيام الخوالي، عن العمل الذي فقدوه، وعن الحياة التي كانت تبدو أفضل في الماضي. كان حسين يشعر بأنه على حافة الهاوية، وأنه لا يمكنه الاستمرار في هذا الوضع لفترة أطول.

ثم جاء الاقتراح، الذي لم يكن ياسر يتوقعه. "لماذا لا ننضم إلى أحد تلك العصابات؟" قالها زميله بنبرة مفعمة بالاستسلام. "لقد حاولت كل شيء آخر، ولم يعد هناك شيء لنخسره".

كانت الكلمات تتردد في ذهن ياسر، كما لو كانت تتحداه ليواجه حقيقة واقعه. كان يعلم أن هذا الطريق سيقوده إلى مكان مظلم، ولكنه أيضًا كان يعرف أنه لم يعد لديه الكثير من الخيارات. كان الجوع واليأس يدفعانه نحو حافة لا يعرف ماذا سيكون بعدها، ولكنه كان يدرك أنه لا يمكنه الاستمرار في المشي على هذا الحبل الرفيع دون أن يسقط.

بدأت الفكرة تتشكل في عقله، كأنها شبح يطارده بلا هوادة. كان يعلم أن الانضمام إلى إحدى العصابات يعني التخلي عن كل شيء يؤمن به، ولكنه أيضًا كان يدرك أن هذا قد يكون السبيل الوحيد للبقاء على قيد الحياة. كان الشارع يغلي بالغضب والاحتياج، وكان ياسر يشعر بأنه ليس سوى نقطة صغيرة في هذا البحر الهائج.

وفي النهاية، قرر ياسر أن يأخذ الخطوة الأولى نحو هذا الطريق المظلم. التقى بزميله مرة أخرى، واتفقا على الانضمام إلى إحدى العصابات المحلية التي كانت تسيطر على جزء من المدينة. لم يكن القرار سهلاً، ولكنه كان يرى في عيون زميله نفس اليأس الذي يشعر به، نفس العجز

عن إيجاد حل آخر. كان هذا هو الاختيار الوحيد المتبقي أمامهم، وكان عليهم أن يأخذوه، بغض النظر عن العواقب.

كان الانضمام إلى العصابة يعني الدخول في عالم جديد، عالم من العنف والجريمة، حيث القانون الوحيد هو القوة، وحيث الضعفاء لا مكان لهم. كان حسين يعلم أنه قد فقد جزءاً من نفسه في تلك اللحظة، ولكنه كان مستعداً لدفع هذا الثمن إذا كان ذلك سيعني البقاء على قيد الحياة.

وفي تلك الأثناء، كانت المدينة تتحول إلى ساحة معركة، حيث كل يوم يأتي بمزيد من الفوضى والدمار. العصابات كانت تسيطر على الشوارع، والناس كانوا يعيشون في خوف دائم من المستقبل. لم يعد هناك شيء مؤكد، كل شيء كان يتغير بسرعة، وكل يوم كان يأتي بجديد، غالبًا ما يكون أسوأ من سابقه.

الجزء الثالث: البحث عن النجاة في عالم ينهار

في زاوية أخرى من المدينة، كانت زينب تتجول في الشوارع بوجه شاحب، باحثة عن شيء ما يسد جوع أطفالها. كانت الحياة قد أصبحت معركة يومية للبقاء، ومع انعدام الأمن الغذائي، كانت كل وجبة تعني أكثر من مجرد طعام على المائدة؛ كانت تعني النجاة من يوم آخر في هذا الجحيم الذي أصبح وطنها.

لم يكن هناك الكثير لتجده. الأرفف في المتاجر الفارغة كانت تروي قصة الانهيار الاقتصادي بكل وضوح. كان كل شيء نادراً ومكلفًا بشكل لا يُصدق، والأسعار كانت تتصاعد يومًا بعد يوم. كانت زينب تقف أمام

واجهة أحد المحلات، تنظر إلى الداخل بلا أمل، تعلم أن ما تحتاجه بعيد المنال.

في هذه اللحظة، التقطت أذنها صوتًا من زقاق قريب. نظرت حولها بحذر، ثم تقدمت ببطء نحو مصدر الصوت. كان هناك مجموعة من النساء يتحدثن بصوت منخفض، وكأنهن يخشين أن يسمعهن أحد. اقتربت زينب منهن، واستطاعت أن تسمع بوضوح الآن. كن يتحدثن عن شاحنة محملة بالمواد الغذائية وصلت إلى المدينة، وأن هناك فرصة للحصول على بعض منها إذا كنّ يعرفن الطريق الصحيح.

كانت تعلم أن هذه الفرصة قد تكون خطيرة، وأنه قد يكون هناك آخرون يبحثون عن نفس الشيء. ولكنها لم تعد تملك رفاهية التردد. كانت تعلم أن هذه قد تكون الفرصة الوحيدة التي تتيح لها إطعام أطفالها. ومع تزايد الشعور بالجوع واليأس، قررت أن تخوض هذه المخاطرة.

تسللت زينب بين الأزقة، متتبعة الإشارات التي حصلت عليها. كانت الشوارع مظلمة، والمباني من حولها تبدو كأنها أطلال لماض بعيد. كل خطوة كانت محفوفة بالمخاطر، وكل صوت كان يبدو كتحذيرٍ. ولكنها استمرت، مدفوعة باليأس والأمومة.

وأخيرًا، وصلت إلى الموقع. كانت الشاحنة هناك، محاطة بمجموعة من الرجال المسلحين الذين كانوا يوزعون الطعام على من يدفع أكثر. كان هناك ازدحام كبير، والناس كانوا يتدافعون للحصول على حصتهم. وقفت زينب في الطابور، تدرك أنها قد لا تحصل على شيء، ولكنها كانت تعلم أن عليها المحاولة.

حين جاء دورها، قدمت كل ما كانت تملك من نقود، ولكنها كانت تعلم أن هذا لن يكون كافيًا. نظرت إلى الرجل الذي كان يوزع الطعام بعينين مملوءتين بالرجاء واليأس. ولدهشتها، أخذ الرجل النقود وأعطاها بعض الأرغفة والقليل من الخضروات. لم يكن كثيراً، ولكن بالنسبة لزينب، كان هذا يعني أن أطفالها لن يناموا جوعى في تلك الليلة.

كان شعور الانتصار الصغير هذا مختلطًا بالخوف. كانت تعلم أن هذه اللحظة قد لا تتكرر، وأن الغد قد يحمل معه معركة جديدة. كانت هذه هي الحياة الآن، كل يوم يحمل معه تحديًا جديداً، وكل وجبة تُعتبر انتصاراً في معركة طويلة لا تنتهي.

في تلك الليلة، عادت زينب إلى منزلها، تحمل الطعام بين يديها وكأنه كنز. حين دخلت البيت، رأى أطفالها الطعام وهرعوا نحوها بفرحة لم تشهدها منذ وقت طويل. كانت هذه اللحظة تعني كل شيء بالنسبة لها، وكانت تعلم أنها قد تكون اللحظة الوحيدة التي تحصل عليها قبل أن تعود للواقع المرير في اليوم التالي.

وفي مكان آخر من المدينة، كان فلاح، رجل الأعمال الانتهازي، يخطط لخطوته التالية. كان يعلم أن الوقت قد حان للرحيل. كانت البلاد تغرق، ولم يكن لديه أي نية للبقاء في هذا الخراب. كان قد جمع ما يكفي من المال لبدء حياة جديدة في مكان آخر، بعيداً عن الفوضى والانهيار.

وفي الوقت الذي كانت زينب تكافح لإطعام أطفالها، كان فلاح يحزم أمتعته، مستعداً للهرب بثروته إلى الخارج. كان يعلم أن الوقت قد حان لترك كل شيء خلفه، وأنه لم يعد هناك شيء يستحق البقاء من أجله. كان هذا هو الاختيار الذي اتخذه، وكان يعلم أن ذلك يعني ترك وطنه في أسوأ لحظاته.

كانت المدينة تغرق في الظلام والفوضى، وكانت الحياة كما عرفها الجميع تتلاشى ببطء. كانت البلاد تتجه نحو المجهول، حيث كل شيء قد تغير، ولم يعد هناك شيء مؤكد. ولكن في خضم هذا الفوضى، كانت هناك لحظات من الإنسانية، لحظات من الكفاح والأمل، حتى وإن كانت ضئيلة، لكنها كانت كافية لإبقاء الناس على قيد الحياة ليوم آخر.

الفصل الرابع : الفوضى والعنف

الجزء الأول : انهيار النظام الاجتماعي وانتشار الفوضى

في تلك الليالي التي اختلط فيها ليل العراق بنهاره، حينما لم يعد للفجر أمل بأن يبدد ظلاماً طال أمده، كان النظام الاجتماعي يتهاوى تحت وطأة الفوضى المتزايدة. لم يعد أحد يذكر متى بدأ كل هذا، ولكن الجميع كان يشعر بأنهم يعيشون في عالم جديد، حيث تحولت المدن التي كانت تضج بالحياة إلى ساحات صراع مفتوح. السماء كانت محتلّة بسحب داكنة، كأنها انعكاس لحالة الأرض؛ سماء لا تبشر إلا بالمزيد من الخراب.

الأحياء التي كانت يوماً ما مزدهرة بالحياة، باتت مهجورة أو مدمرة جزئياً. أصوات الرصاص وصراخ الضحايا كانوا هم الصوت الوحيد الذي يصدح في الشوارع. كان كل شيء في حالة من السقوط الحر نحو الفوضى، حيث لا شيء يبقى ثابتاً أو آمناً. كان الناس يتنقلون بحذر، يلتصقون بالجدران ويتجنبون الطرقات الرئيسية، حيث كانت الاشتباكات المسلحة تحدث بشكل يومي بين الجماعات المتنازعة. لم يعد هناك مكان للأمان، ولم يعد أحد يثق بالآخر. حتى الأشجار التي كانت تزين الشوارع، فقدت لونها، وذبلت أوراقها وكأنها ترفض أن تكون شاهدة على هذا الدمار.

في كل زاوية من زوايا المدينة، كانت هناك مشاهد للنهب والسلب، حيث لم يعد هناك شيء محرّم. المنازل التي كانت تفيض بالدفء والراحة، أصبحت الآن أطلالاً بعد أن اقتحمها اللصوص. المتاجر التي كانت تبيع كل ما لذ وطاب، أصبحت مجرد هياكل فارغة بعدما جردت من كل شيء يمكن حمله. كان الجوع والحاجة هما الدافعان الرئيسيان، وكان البقاء للأقوى هو القانون الوحيد الذي يحكم الشوارع الآن.

أصبح النهار كئيبًا، مظلماً مثل الليل. كانت الشمس تبدو شاحبة، كأنها ترفض أن تشهد على هذا الدمار. الرياح كانت تحمل معها رائحة الدم والدخان، تختلط برائحة الخوف التي كانت تملأ الهواء. كل شيء كان يوحي بأن الحياة كما عرفها الناس قد انتهت، وأنهم الآن في مواجهة عالم جديد، حيث لا مكان للضعفاء.

الاشتباكات المسلحة كانت تتصاعد بلا هوادة. الطوائف والجماعات المختلفة، التي كانت فيما مضى تعيش جنباً إلى جنب في سلام هش، باتت الآن تتقاتل بشراسة. لم يكن هناك من يسعى للصلح أو التفاوض؛ كان كل طرف يسعى للسيطرة على جزء من المدينة، يحاول فرض سلطته على ما تبقى من حياة. لم يكن السلاح مجرد أداة للدفاع عن النفس، بل أصبح رمزاً للقوة والسيطرة. كل طلقة نارية كانت تحمل معها رسالة بأن من يملك السلاح يملك الحق في الحياة.

وسط كل هذا الجنون، كانت المؤسسات الحكومية تنهار واحدة تلو الأخرى. المباني الحكومية التي كانت تقف شامخة كرموز للسلطة والنظام، تحولت إلى أطلال مهجورة. لم يعد هناك جيش يحمي البلاد، ولا شرطة تفرض القانون. كانت الحكومة نفسها قد تلاشت، تاركة البلاد في قبضة الفوضى. لم يعد هناك من يجرؤ على محاولة إعادة النظام، لأن النظام نفسه قد أصبح مفهوماً من الماضي البعيد، شيئًا لم يعد له وجود في هذا الواقع الجديد.

الجزء الثاني: تحول الأفراد إلى العنف والجريمة

مع انهيار كل ما هو مألوف، وجد الناس أنفسهم مضطرين للتكيف مع هذا الواقع الجديد. كانت مريم، الشابة التي كانت تحلم يوماً بمستقبل مليء بالأمان والطمأنينة، تجد نفسها مجبرة على اتخاذ قرارات لم تكن تتخيلها يوماً. لم يعد هناك مجال للتمسك بالأحلام أو المبادئ؛ كان البقاء على قيد الحياة هو الهدف الوحيد الذي يستحق التفكير فيه. ومع تصاعد العنف من حولها، لم تجد مريم بديلاً عن الانضمام إلى إحدى المجموعات المسلحة التي كانت تجوب الشوارع.

لم يكن الانضمام إلى هذه المجموعة اختياراً سهلاً. كانت مريم تعلم أن ذلك يعني التخلي عن الكثير مما كانت تؤمن به، ولكنها كانت تعلم أيضاً أن هذه هي الطريقة الوحيدة لحماية نفسها وعائلتها. كانت ترى في عيون أفراد المجموعة نفس الخوف والرهبة التي كانت تشعر بها، ولكنها كانت ترى أيضاً تصميمًا لا يمكن كسره. كانوا جميعاً يعلمون أن العالم الذي كانوا يعرفونه قد انتهى، وأنهم الآن في مواجهة واقع لا مكان فيه للضعفاء.

حمل السلاح في يدها لأول مرة كان بمثابة تحول في حياتها. كانت تشعر بثقل البندقية في يدها، كما لو أنها كانت تحمل معها عبء العالم بأسره. لكنها كانت تعلم أنها لا تملك خياراً آخر. كانت تعلم أن هذه البندقية قد تكون الفرق بين الحياة والموت، وأنها قد تحتاج إلى استخدامها في أي لحظة. كانت كل خطوة تخطوها في شوارع المدينة بمثابة تحد، ليس فقط لأعدائها، ولكن أيضاً لنفسها. كانت تعلم أن العالم الذّي تعرفه قد تلاشى، وأنها الآن في مواجهة عالم جديد، لا يعرف إلا لغة القوة.

في مكان آخر من المدينة، كان ياسر يعيش تحولاً من نوع آخر. الرجل الذي كان يعمل في أحد المصانع، وجد نفسه الآن جزءاً من العصابات التي تسيطر على الشوارع. بعد أن فقد كل شيء، لم يعد لديه ما يخسره. كان الجوع واليأس يدفعانه نحو قرارات لم يكن ليتخيلها يوماً. بدأ ياسر يشارك في عمليات النهب والسلب التي اجتاحت المدينة. كان يدخل إلى المتاجر والمنازل، يأخذ ما يستطيع حمله، دون أن ينظر إلى الخلف. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للبقاء، ولم يعد لديه خيار آخر.

ولكن مع مرور الوقت، بدأ ياسر يكتشف أن البقاء في هذا العالم الجديد يتطلب أكثر من مجرد المشاركة في النهب. كان عليه أن يكون قاسياً، أن يكون مستعداً لفعل أي شيء للحفاظ على مكانه في العصابة. كان يعلم أن كل لحظة من لحظات ضعفه قد تكون فرصته الأخيرة. كان عليه أن يتخلى عن كل ما يؤمن به، أن يتحول إلى شخص آخر تماماً. وكانت اللحظة الفاصلة في حياته تأتي عندما اضطر لقتل صاحب أحد المتاجر الذي حاول الدفاع عن ممتلكاته.

في تلك اللحظة، حينما سحب الزناد وشاهد صاحب المتجر يسقط أمامه، أدرك ياسر أنه قد تخلى عن كل شيء كان يعتقد أنه يمثله. كان يشعر ببرودة البندقية في يده، ببرودة لم يعرفها من قبل. كان يعلم أنه قد انزلق إلى عالم لا يعرف الرحمة، عالم لا يمكن فيه العودة إلى الوراء. كان عليه أن يستمر، أن يتقدم في هذا الطريق المظلم، لأن التراجع لم يعد خياراً متاحاً.

كان التحول الذي شهده ياسر جزءاً من تحول أكبر كان يجتاح المدينة بأسرها. الناس الذين كانوا يعيشون جنباً إلى جنب في وئام هش، باتوا الآن يتحولون إلى أعداء. كان الجوع واليأس يدفع الناس إلى اتخاذ

قرارات لم يكونوا يتخيلونها يوماً. كل شخص كان يحاول الحفاظ على حياته بأي وسيلة، حتى لو كان ذلك يعني التخلي عن كل ما كان يؤمن به. كانت المدينة تغلي بالغضب والخوف، وكانت كل خطوة فيها بمثابة مغامرة محفوفة بالمخاطر.

الجزء الثالث: سقوط القيم وفقدان التأثير والسلطة

بينما كان الناس يغرقون في الفوضى والعنف، كان هناك من يحاول التمسك بشيء من الأمل. أبو زيد، رجل الدين الذي كان يُعتبر يوماً ما رمزاً للحكمة والتقوى في مجتمعه، وجد نفسه الآن عاجزاً عن التأثير على ما يحدث من حوله. كان يجلس في مسجده، يراقب التحولات التي تجتاح مجتمعه، ويشعر بالعجز الكامل عن التصدي لها. كانت كلماته التي كانت تُلهم الناس وتعيد إليهم الأمل تبدو الآن كصدى باهت، كأنها لا تجد من يسمعها.

المسجد الذي كان يوماً ما يعج بالمصلين، أصبح الآن مهجوراً. كان أبو زيد ينظر إلى المصحف الذي أمامه، ويشعر بثقل الواقع الجديد. كان يعلم أن الأمور قد خرجت عن السيطرة، وأن الناس لم يعودوا يبحثون عن السلام أو الطمأنينة. كانوا يبحثون عن القوة، عن وسيلة للبقاء على قيد الحياة في هذا العالم الجديد. كانت رؤيته لأحد شباب جماعته السابقين يدخل المسجد بحثاً عن سلاح، بمثابة نقطة تحول بالنسبة له.

الشاب الذي كان يوماً ما يستمع إلى دروس أبو زيد بإمعان، جاء الآن يسأل عن طريقة للحصول على سلاح للدفاع عن نفسه. كان يبدو عليه التعب والخوف، وكانت عيناه تحملان بريقاً من اليأس. كان يبحث عن

شيء يمكّنه من البقاء، شيء يضمن له حماية نفسه وعائلته. ولكن عندما رفض أبوَ زيد تقديم أي مساعدة له، أدرك الشاب أن الزمن قد تغير، وأنه لم يعد هناك مكان لمن يتحدث عن السلام في عالم يسوده العنف.

بعد رحيل الشاب، جلس أبو زيد وحده في المسجد، يشعر بثقل السنين وبمرارة العجز. كان يعلم أن تأثيره وسلطته قد انتهيا، وأن الناس لم يعودوا بحاجة إلى من يرشده نحو الفضيلة، بل إلى من يقودهم في معركة البقاء. كان يرى في عيون الناس رغبة عارمة في الانتقام، في البقاء بأي ثمن. لم يعد هناك من يثق في كلامه، بل كانوا يثقون في البنادق التي تحملها أيديهم. كانت هذه هي النهاية بالنسبة له، نهاية عالم عرفه وآمن به.

في تلك الليلة، جلس أبو زيد في مسجده الفارغ، ينظر إلى السماء من النافذة الصغيرة، ويشعر بأن العالم الذي عرفه قد انتهى. كان يعلم أن الأيام القادمة ستحمل المزيد من الفوضى والدمار، ولكنه كان يعلم أيضاً أن لا أحد يسمع أو يهتم. كان هذا هو السقوط الأكبر بالنسبة له، أن يرى قيمه تنهار أمام عينيه، دون أن يكون له القدرة على فعل شيء لمنع ذلك.

كانت المدينة تغرق أكثر فأكثر في العنف والفوضى، ولم يعد هناك من يستطيع إيقاف هذا السقوط الحر. كل شيء كان ينهار، وكل شخص كان يبحث عن وسيلة للبقاء في هذا العالم الجديد. كانت القيم والمبادئ تتساقط كأوراق الشجر في خريف بارد، وكان الجميع يعلمون أن ما يحدث الآن ليس إلا بداية النهاية، وأن الأسوأ لم يأت بعد.

وفي تلك اللحظات، بينما كان الليل يسدل ستاره على المدينة، كانت هناك شعلة صغيرة من الأمل لا تزال تتوهج في قلوب بعض الناس. كانوا يعلمون أن العالم الذي عرفوه قد انتهى، ولكنهم كانوا يأملون في أن

يكون هناك طريق للخروج من هذا الجحيم. كانوا يتشبثون بأي شيء يمكن أن يمنحهم القوة للبقاء، حتى وإن كانت تلك القوة تستند إلى البندقية أو إلى العنف.

الفصل الخامس: التآكل الاجتماعي

الجزء الأول: تآكل الروابط الاجتماعية وتفكك العائلات

في ظلال الفوضى التي اكتسحت كل زاوية من زوايا العراق، كان التآكل الاجتماعي يتسرب ببطء لكنه بلا هوادة إلى كل جوانب الحياة. العلاقات التي كانت تجمع الأصدقاء والعائلات بدأت في التفكك تحت وطأة ضغوط الواقع الجديد، حيث لم يعد هناك مجال للثقة. باتت الحياة أشبه بمعركة دائمة من أجل البقاء، مع تراجع الأخلاق والمبادئ إلى هوامش المعركة.

إسراء، التي كانت تعيش يومًا في كنف أسرة مترابطة، وجدت نفسها الآن تتشبث ببقايا ما كان يومًا حياتها. كانت تصارع الأمواج العاتية للواقع الجديد، تحاول بكل ما أوتيت من قوة الحفاظ على ما تبقى من عائلتها. في لحظات الصمت القليلة التي كانت تحصل عليها بين هموم الحياة، كانت تتساءل كيف وصلت الأمور إلى هذا الحال. كانت تذكر جيدًا الأيام التي كانت تجمع فيها الأصدقاء حول مائدة واحدة، يتبادلون الحديث والضحكات. لكن هؤلاء الأصدقاء لم يعودوا جزءًا من حياتها؛ البعض منهم ابتلعته الفوضى، والبعض الآخر اختار الابتعاد، يخشى الخيانة التي باتت شبحًا يطارد الجميع.

في منزلها الصغير، كانت إسراء تشعر بتآكل العلاقة بينها وبين أطفالها. كانت تعرف أن هذا التآكل ليس نتيجة لأفعالهم، بل نتيجة للوضع القاسي الذي وجدوا أنفسهم فيه. كانت تجلس معهم ليلاً، تحاول أن تغرس في قلوبهم بصيصًا من الأمل، رغم أنها كانت تعلم في أعماقها أن الكلمات لم تعد كافية. كان الأطفال يسألونها عن المستقبل، عن الأحلام

التي كانوا يحملونها يومًا ما، لكنها لم تكن تملك الأجوبة التي تطمئنهم. كل ما كانت تستطيع فعله هو أن تبقيهم بجوارها، تحميهم من الواقع الذي لا يرحم.

كانت الانقسامات بين الطبقات الاجتماعية تتعمق، تزيد من الهوة التي تفصل بين الناس. كانت الفوارق الاقتصادية، التي كانت يومًا ما واضحة ولكن مقبولة، قد تحولت الآن إلى حواجز نفسية تمنع أي نوع من التواصل. الأغنياء الذين كانوا يعيشون في أبراج عاجية، يجدون أنفسهم الآن محاطين بجدران من الخوف والقلق. لم يعد بإمكانهم الاستمتاع بثرواتهم كما كانوا يفعلون في السابق، حيث أصبحوا أهدافًا للنهب والسلب. كانت مظاهر الترف التي أحاطت بحياتهم تشكل عبئًا عليهم الآن، بدلاً من أن تكون مصدراً للراحة.

في الشوارع، كانت الطائفية تلعب دوراً كبيراً في تعميق الانقسامات. كانت الهويات الدينية والطائفية تتحول إلى أسلحة في صراع البقاء. كل جماعة كانت تتجمع حول نفسها، تحاول حماية ما تبقى من ممتلكاتها ومكانتها. الأحياء التي كانت يومًا ما مزدهرة بتنوعها، أصبحت الآن معاقل مغلقة لكل طائفة، كل منها تنظر إلى الأخرى بعين الريبة والخوف.

إسراء كانت تشعر بهذه الانقسامات في كل يوم يمر. كانت ترى كيف أن الناس الذين كانوا يعيشون معًا في سلام، أصبحوا الآن ينظرون إلى بعضهم البعض كأعداء. كانت تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تبقي عائلتها موحدة، أن تمنعهم من الانجراف في دوامة الكراهية التي تجتاح الجميع. لكن الأمر كان يزداد صعوبة مع مرور الوقت، حيث كانت الكراهية والخوف يتسللان إلى قلوب الجميع، بما فيهم أطفالها.

وفي لحظة مريرة، وبينما كانت إسراء تحاول تأمين بعض الطعام لأطفالها، شاهدت امرأة أخرى تتعثر في سيرها، تحمل طفلا صغيراً في حضنها. كان الطفل يبدو شاحبًا، وكأن الحياة قد غادرته، بينما كانت الأم تبكي بصمت، كأنها تحاول إخفاء ألمها عن العالم القاسي. كانت تلك اللحظة بمثابة صفعة لإسراء، تذكرها بمدى هشاشة الوضع الذي تعيش فيه، وبأن الفوضى قد أخذت منها أكثر مما كانت تتخيل. كان هذا الطفل يمثل كل ما تخشى إسراء أن تخسره، وكانت تعلم أن أي لحظة قد تكون هي اللحظة التي تسلبها كل شيء.

كانت الليالي تمر بطيئة، مثقلة بالخوف والقلق. كانت إسراء تجلس مع أطفالها في غرفة صغيرة باردة، تحاول أن تبقيهم متحدين، تحميهم من العالم الخارجي الذي لم يعد يرحم أحداً. كانوا يجلسون معًا، يتقاسمون وجبة بسيطة، بينما كانت الرياح تصفع الجدران المتصدعة للمنزل. كان الأطفال يسألونها عن الجيران، عن الأصدقاء الذين اختفوا، ولكنها لم تكن تملك إجابات لهم. كل ما كانت تستطيع فعله هو محاولة إبعادهم عن الحقيقة القاسية، الحقيقة التي تقول إن العالم الذي عرفوه قد انتهى، وأنهم الآن في مواجهة شيء لا يمكن التنبؤ به.

الجزء الثاني: الانقسامات الطبقية والطائفية وانهيار الخدمات الأساسية

في ظل هذا الانهيار الشامل، كانت الانقسامات الطبقية والطائفية تأخذ منحىً أشد حدة. الأحياء التي كانت تمثل مجتمعات متجانسة باتت الآن مقسمة إلى معاقل مغلقة، حيث كل جماعة تحاول حماية نفسها من الأخرى. الأغنياء الذين كانوا يعيشون في رفاهية مفرطة، وجدوا أنفسهم

محاطين بجدران من الخوف، إذ لم تعد أموالهم كافية لحمايتهم من الفوضى التي اجتاحت المدينة.

القصور التي كانت تزينها الحدائق الخضراء والمسابح الفاخرة، أصبحت الآن أهدافًا سهلة للنهب والسلب. لم يعد هناك مكان للترف في هذا العالم الجديد. الأثرياء الذين كانوا يعتمدون على حراساتهم الخاصة، وجدوا أن هذه الحراسات قد أصبحت عديمة الفائدة أمام موجات الفوضى والعنف التي كانت تقتحم حياتهم. في بعض الأحيان، كانت هذه الحراسات نفسها تنقلب على أصحابها، تشارك في النهب بدلا من حمايتهم.

في الشوارع، كانت الطائفية تتحول إلى نيران مشتعلة تلتهم كل شيء. الجماعات التي كانت تعيش معًا لسنوات، تحولت إلى خصوم يتصارعون على السيطرة على الموارد المتبقية. في ظل هذا الانهيار، كانت الهوية الطائفية تتحول إلى سلاح يستخدمه الجميع، حتى الأطفال الذين لم يعرفوا يومًا معنى التفرقة أصبحوا الآن يرون العالم من منظور طائفي ضيق. كان الشك والخوف يسيطران على النفوس، والجميع يتوقعون الأسوأ في أي لحظة.

إسراء كانت تراقب كل هذا بعيون حزينة. كانت ترى كيف أن الناس الذين كانوا يعيشون جنبًا إلى جنب، يتقاسمون الأفراح والأتراح، باتوا الآن ينظرون إلى بعضهم البعض كأعداء. كان هذا الواقع الجديد يغزو حياتها وحياة أطفالها، يجردهم من الإنسانية التي كانت تربطهم ببعضهم البعض. كانت تعلم أن هذا الانقسام ليس إلا مقدمة لمزيد من العنف والدمار، وأن الأمور ستزداد سوءًا مع مرور الوقت.

في الوقت نفسه، كان ياسر يغرق أكثر في عالم الجريمة. الرجل الذي كان يعمل يومًا ما في المصنع، الذي كان يحمل في قلبه أحلامًا بسيطة، أصبح الآن جزءًا من عصابة مسلحة لا تعرف الرحمة. بعد أن فقد كل شيء، لم يعد ياسر يرى في الحياة أي قيمة، سوى البقاء على قيد الحياة بأي وسيلة ممكنة. كان يرى العالم من حوله يتحول إلى ساحة معركة، حيث لا يوجد سوى الناجون والقتلى.

في إحدى الليالي القاسية، وبينما كان ياسر يتجول في شوارع المدينة المهجورة، التقى بصديقه القديم، الشخص الوحيد الذي كان يعني له شيئًا في هذا العالم المدمر. كان صديقه يعاني من الجوع والعطش، يبحث عن أي شيء يمكنه أن يقدمه لعائلته. كانت عيناه مليئتين باليأس، وكان ياسر يشعر بأنه قد وصل إلى نقطة لا يمكن فيها تقديم المساعدة.

عندما طلب الصديق من ياسر بعض الطعام والماء، شعر ياسر بتردد عميق. كان يعلم أن أي مساعدة يقدمها ستعرضه للخطر، وستضعف موقفه داخل العصابة. كان الصراع الداخلي يعصف به، لكنه كان يعلم أن هذا العالم الجديد لا يرحم الضعفاء. في لحظة من التردد والشك، اتخذ ياسر قراره، وقام بخيانة صديقه. انقض عليه بوحشية، محاولا انتزاع كل ما كان يحمله. كان يعلم أنه بهذا الفعل، قد تخلى عن آخر ما تبقى من إنسانيته.

كانت لحظة الخيانة هذه نقطة تحول حاسمة في حياة ياسر. كان يعلم أنه قد فقد جزءًا من نفسه، وأنه قد دخل عالمًا لا يمكن الخروج منه. كان يشعر بثقل ما فعله، ولكن لم يكن هناك مجال للندم في هذا العالم. كل ما كان يهمه الآن هو البقاء، بأي وسيلة كانت. كان يعلم أن العالم الذي عرفه قد انتهى، وأنه أصبح شخصًا مختلفًا تمامًا.

في هذه الأثناء، كانت المدينة تشهد انهياراً كاملا للخدمات الأساسية. المدارس التي كانت تضج بأصوات الأطفال، تحولت إلى مبان مدمرة، فارغة من الحياة. لم يعد هناك مكان للتعليم، ولم يعد هناكً من يهتم بمستقبل الأطفال. كان الجميع مشغولين بالبقاء على قيد الحياة في الحاضر، ولم يكن هناك وقت للتفكير في المستقبل.

القطاع الصحي، الذي كان يومًا ما يعتني بصحة الناس، كان هو الآخر على شفا الانهيار. المستشفيات كانت ممتلئة بالمرضى الذين لم يكن هناك من يعالجهم، والأدوية كانت قد اختفت من السوق. الناس كانوا يموتون في منازلهم بسبب الأمراض التي لم يكن لها علاج، وكانت الحياة تتحول إلى جحيم يومي لا نهاية له.

وفي هذا السياق القاسي، كانت إسراء تعيش واحدة من أصعب اللحظات في حياتها. كان أحد أطفالها قد أصيب بمرض خطير، وكانت ترى حياته تتلاشى أمام عينيها بلا حول ولا قوة. لم يكن هناك من يساعدها، ولم يكن هناك من يوفر لها الأدوية أو الرعاية اللازمة. كانت تجلس بجوار طفلها، تراقب أنفاسه التي كانت تزداد ضعفًا مع كل لحظة، وتعلم أن الموت يقترب، ولكنها كانت عاجزة عن فعل أي شيء لإيقافه.

في تلك الليلة، وبينما كانت الحياة تتسرب من جسد طفلها الصغير، شعرت إسراء بأن قلبها قد تحطم إلى ألف قطعة. كانت تلك اللحظة بمثابة النهاية لكل شيء آمنت به، لكل ما كانت تأمل فيه. كانت تعلم أن الفوضى لم تأخذ منها فقط وطنها وأمانها، بل أخذت منها جزءاً من روحها، ولن تعيده أبداً.

الجزء الثالث : انهيار التعليم والصحة وفقدان الإنسانية

في تلك اللحظات المظلمة، كانت المدينة تغرق أكثر فأكثر في الفوضى. لم يعد هناك مجال للأمل، ولم يعد هناك من يهتم بالمستقبل. كانت الحياة تتحول إلى صراع دائم من أجل البقاء، وكان الجميع يشعرون بأنهم يعيشون في كابوس لا نهاية له. المدارس التي كانت يومًا ما مكانًا للعلم والمعرفة، أصبحت الآن أطلالا فارغة، تملؤها الرياح التي تحمل معها بقايا الذكريات. لم يعد هناك من يتحدث عن التعليم، ولم يعد هناك من يهتم بمستقبل الأجيال القادمة.

إسراء كانت تشعر بهذا الفقدان في كل لحظة. كانت ترى أطفالها الذين كانوا يحلمون بالذهاب إلى المدرسة، وهم يضيعون في دوامة الجهل والفوضى. لم يكن لديها ما تقدمه لهم سوى قصص من الماضي، عن الأيام التي كانت فيها المدارس تعج بالحياة والأمل. لكنها كانت تعلم أن هذه القصص لم تعد تعني شيئًا في هذا العالم الجديد، حيث لا يوجد سوى الخوف والجوع.

أما الخدمات الصحية، فقد انهارت تمامًا. المستشفيات التي كانت ملاذًا للمرضى والمصابين، تحولت إلى أماكن مهجورة، تملؤها الأشباح. لم يعد هناك من يهتم بصحة الناس، ولم يعد هناك من يعالج المرضى. كان الجميع يُترك لمصيره، سواء في منازلهم المتداعية أو في الشوارع القذرة. كان الموت يحوم في كل زاوية، يلاحق الناس بلا رحمة، ولا يميز بين صغير وكبير.

في خضم هذا الانهيار، كان فلاح يعيش حياة مختلفة تمامًا. الرجل الذي جمع ثروته من استغلال الفوضى والفساد، كان قد هرب إلى الخارج مع كل ما يملكه من أموال. بينما كان وطنه يغرق في الفوضى والدمار، كان

فلاح يستمتع بحياته الفاخرة في مكان آمن بعيد. لم يكن يهتم بما يحدث في العراق، بل كان ينظر إلى ما يحدث هناك كمجرد ذكرى بعيدة لا تعنيه. كان يعلم أنه قد نجا بنفسه، وأنه قد خرج من هذه الأزمة بأمان، تاركًا خلفه كل شيء.

في كل يوم، كان فلاح يستيقظ في قصره الفخم، يتناول فطوره على شرفة تطل على منظر خلاب، بعيدًا عن أصوات الرصاص وصراخ الضحايا. كان يعلم أن حياته هنا مختلفة تمامًا عن الحياة التي تركها وراءه. لم يكن يشعر بأي تأنيب ضمير، بل كان يعتبر نفسه ذكيًا لأنه عرف كيف يستغل الظروف لصالحه. كان يعيش في عالم منفصل، حيث لا يوجد مكان للقلق أو الخوف، وحيث يمكنه أن يستمتع بثمار ما جناه.

لكن في الليالي الهادئة، حينما كان يجلس وحيدًا في قصره، كانت تراوده بعض الذكريات عن بلده الذي تركه خلفه. كان يتذكر الشوارع التي كان يسير فيها يومًا، والناس الذين كانوا يحترمونه بسبب ثروته وسلطته. لكنه كان يعلم أن هذا الزمن قد انتهى، وأن العراق الذي يعرفه قد اختفى إلى الأبد. لم يكن لديه رغبة في العودة، لأنه كان يعلم أن ما تبقى هناك لم يعد يعنيه بشيء.

في هذه الأثناء، كانت إسراء تحاول التمسك بما تبقى من حياتها وحياة أطفالها. كانت تعلم أن الحياة أصبحت أصعب من أي وقت مضى، ولكنها كانت ترفض الاستسلام. كانت ترى في عيون أطفالها بقايا من الأمل، وكانت تعلم أن عليها أن تحافظ على هذا الأمل بأي ثمن. كانت تحاول جاهدة أن تبقى قوية، أن تكون لهم السند الوحيد في هذا العالم القاسي. كانت تعلم أن كل يوم يمر هو معركة جديدة، وأن عليها أن تكون مستعدة لأي شيء.

أما ياسر، فقد كان يغرق أكثر في عالم الجريمة، وكان يشعر بأنه قد فقد كل شيء. كان يعلم أنه لم يعد نفس الشخص الذي كان يعرفه، ولكنه لم يكن يهتم. كل ما كان يهمه الآن هو البقاء على قيد الحياة في هذا العالم الذي لا يرحم. كان يعلم أن الطريق الذي يسير فيه قد لا ينتهي إلا بمصير مأساوي، ولكنه لم يكن يرى خياراً آخر. كانت حياته قد تحولت إلى سلسلة من القرارات القاسية، ولم يعد هناك مجال للعودة إلى الوراء.

وفي كل ليلة، كانت المدينة تغرق في الظلام، تغمرها الفوضى واليأس. لم يعد هناك مكان للأمل، ولم يعد هناك من يهتم بالمستقبل. كانت الحياة قد تحولت إلى صراع دائم من أجل البقاء، وكان الجميع يدركون أن ما يحدث الآن هو نهاية لكل شيء عرفوه. لكن حتى في هذا الظلام الدامس، كانت هناك قلة قليلة لا تزال تحاول التمسك بإنسانيتها، تحاول أن تجد طريقًا للخروج من هذا الجحيم. لكن الطريق كان طويلاً ومليئًا بالأشواك، ولم يكن أحد يعرف ما إذا كان هناك ضوء في نهاية هذا النفق الطويل.

الفصل السادس: الهوية الوطنية

الجزء الأول: انهيار الهوية الوطنية

فيما كانت السنين تمضي ببطء في العراق، كان التدهور الحاد يمزق أوصال الهوية الوطنية التي كانت تجمع العراقيين يومًا ما تحت لواء واحد. البلاد التي كانت يومًا ما مهد الحضارات، والتي حملت عبر القرون إرثًا غنيًا من التاريخ والثقافة، أصبحت اليوم أرضًا تمزقها الصراعات الطائفية والقبلية. كان الشعب الذي كان يفتخر بكونه عراقيًا فوق كل اعتبار، يجد نفسه الآن يتشبث بانتماءاته الطائفية والقبلية كوسيلة للبقاء على قيد الحياة.

كانت الاشتباكات الطائفية تتصاعد بشكل مرعب، تأخذ معها كل ما تبقى من روح الوطن. الشوارع التي كانت يومًا ما تعج بالحياة والأمل، أصبحت الآن مسرحًا للعنف والدمار. المباني التي كانت شامخة في وسط المدن تحولت إلى أنقاض، والناس الذين كانوا يعيشون جنبًا إلى جنب في سلام، باتوا يتجنبون بعضهم البعض وكأنهم أعداء. كان الرعب هو سيد الموقف، حيث لا أحد يستطيع الوثوق بالآخر، وكل جماعة كانت تحتمي بجماعتها، متناسية الهوية الوطنية التي كانت تجمعهم.

في هذه الأجواء المشحونة، كانت محاولات إعادة توحيد الشعب تبدو أشبه بمحاولات اليائس لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام السفينة الغارقة. كان هناك القليل ممن لا يزالون يؤمنون بإمكانية عودة العراق إلى سابق عهده، ولكن أصواتهم كانت تضيع وسط صخب الصراعات والدماء التي تسيل في الشوارع. كانت الطائفية قد تغلغلت في النفوس، حتى الأطفال الذين لم يعرفوا يومًا معنى التفرقة أصبحوا الآن جزءًا من هذا الانقسام العميق.

أبو زيد، رجل الدين الذي كان يُنظر إليه يومًا ما على أنه رمز للحكمة والوحدة، وجد نفسه في مواجهة معركة خاسرة. كان يسعى بكل طاقته إلى توحيد الناس حول فكرة الهوية الوطنية، يحاول تذكيرهم بأنهم جميعًا عراقيون قبل أي شيء آخر. كان يذكرهم بالماضي، بالأيام التي كان فيها الجميع يحتفلون معًا، ويشتركون في أفراحهم وأحزانهم دون النظر إلى طوائفهم أو قبائلهم. لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن هذه الكلمات أصبحت جوفاء في عالم قد تلاشت فيه تلك الروابط.

في كل مرة كان يقف على منبر المسجد، كان يتحدث إلى المصلين عن العراق الذي كان يعرفه، عن وطن يجمع الجميع تحت رايته. كان يقول لهم: "نحن أبناء العراق، دمنا واحد، وأرضنا واحدة. لا تسمحوا للطائفية بأن تفرق بيننا." لكنه كان يرى في أعينهم نظرات خاوية، وكأن كلماته لا تصل إليهم. كانوا يستمعون إليه احترامًا، لكنهم في أعماقهم كانوا يعرفون أن هذا الحديث عن الوحدة لم يعد يناسب واقعهم اليومي.

كان يعود إلى منزله بعد كل خطبة، يشعر بالثقل الذي يزداد على كاهله. كان يعلم أن ما يحاول فعله قد لا يكون له تأثير يذكر، لكنه لم يستطع التوقف. كان يشعر بأنه مضطر للاستمرار، حتى وإن كان ذلك أشبه بمحاولة سد البحر بكفتيه العاريتين. كان يجلس في غرفته المظلمة، يفتح المصحف الذي كان رفيقه الدائم، يتلو آياته بصوت خافت، ويسأل الله أن يمنحه القوة لمواصلة هذه المعركة الصامتة.

مع مرور الوقت، بدأت كلماته تفقد بريقها حتى في نظره هو. كان يشعر بأن الزمن قد تجاوزه، وأن الناس لم يعودوا يرغبون في سماع ما كان يعتقده يومًا جوهريًا لبقاء الوطن. كان يرى كيف أن الطائفية قد أصبحت

هي الحاكم الفعلي، وأن الناس قد اختاروا الانتماء إلى قبائلهم وطوائفهم كبديل عن الوطن الذي كان يومًا يجمعهم.

في لحظات اليأس، كان يتذكر كيف كانت الأمور مختلفة في الماضي. كان يتذكر الأعياد والمناسبات التي كان الناس فيها يتجمعون، يغنون ويرقصون معًا، دون أن يفكروا في انتماءاتهم الطائفية. كان يتذكر كيف كانت العائلات تتبادل الزيارات، وكيف كان الجميع يشعرون بأنهم جزء من شيء أكبر، شيء يسمى الوطن. لكن هذه الذكريات كانت تبدو بعيدة جدًا الآن، كأنها تنتمي لعالم آخر، عالم لم يعد له وجود.

الجزء الثاني: تصاعد الصراعات الداخلية وفقدان الأمل

في الوقت الذي كان فيه أبو زيد يكافح للحفاظ على ما تبقى من الهوية الوطنية، كانت الصراعات الطائفية تأخذ منحى أكثر دموية. كانت المدن تتحول إلى ساحات قتال، حيث لا رحمة ولا شفقة. كل فصيل كان يحاول فرض سيطرته على جزء من المدينة، يرفع راياته الخاصة، ويفرض قوانينه على السكان. كانت المعارك تندلع في كل زاوية، وكان المدنيون الأبرياء يدفعون الثمن الأكبر.

لم يكن هناك مكان للحياد في هذا الصراع، فقد كان الجميع مضطرين لاختيار جانب ما. الانتماء الطائفي أصبح هو الهوية الوحيدة التي يعترف بها الجميع، وكان كل من يحاول البقاء محايداً يُنظر إليه على أنه خائن أو جبان. كان الخوف هو الذي يحكم الجميع، حيث كان الناس يخشون من أن يتم اتهامهم بالولاء للطرف الآخر.

في خضم هذه الفوضى، كانت المحاولات البائسة لإعادة توحيد الشعب تبدو أشبه بالسراب في صحراء واسعة. كل دعوة للوحدة كانت تُقابل بالرفض أو التهكم. كان الناس ينظرون إلى من يتحدث عن الوطن بعين الريبة، وكأنه يسعى للإيقاع بهم في فخ الخيانة. كان التشتت والانقسام قد بلغ من العمق حداً لم يعد معه الوطن مفهوماً يمكن الدفاع عنه.

مريم، التي كانت تحلم يومًا بعراق موحد، وجدت نفسها غارقة في دوامة من الحزن واليأس. كانت ترى كيف أن حلمها يتلاشى أمام عينيها، وكيف أن البلد الذي كانت تحبه قد تحول إلى ساحة معركة لا نهاية لها. كانت ترى كيف أن الناس الذين كانوا جزءًا من حياتها باتوا يتقاتلون بلا رحمة، وكيف أن الكراهية قد حلت محل الحب والتسامح الذي كان يميزهم في الماضي.

كانت مريم تعيش في حي صغير مع عائلتها، وكانت تحاول بقدر الإمكان أن تبقي عائلتها بعيدة عن هذه الصراعات. لكن كان الأمر يزداد صعوبة مع مرور الأيام. كانت ترى في كل يوم كيف أن النزاعات المسلحة تقترب من حيها، وكيف أن الناس يبدؤون بالحديث عن ضرورة حماية أنفسهم والانضمام إلى أحد الفصائل المتحاربة. كان هذا الضغط النفسي يعصف بها، وكانت تشعر بأنها محاصرة في عالم لا يفهمها ولا تستطيع الهروب منه.

في كل مرة كانت تخرج من منزلها، كانت تشعر بأنها تدخل إلى ساحة معركة مفتوحة. كانت ترى الوجوه المشحونة بالغضب والخوف، وكانت تسمع الأصوات التي تردد شعارات الطائفية والكراهية. كانت تشعر بأن الأرض التي تمشي عليها لم تعد الأرض التي عرفت، وأن الناس الذين

تقابلهم في الشوارع لم يعودوا نفس الأشخاص الذين كانوا يحتفلون معها في الأعياد والمناسبات.

في تلك اللحظات الصعبة، كانت مريم تحاول أن تسترجع في ذاكرتها الأيام التي كانت فيها الحياة مختلفة. كانت تتذكر كيف كانت تسير في الشوارع دون خوف، كيف كانت تلتقي بجيرانها وتبادلهم الابتسامات. كانت تتذكر الأصوات التي كانت تعلو بالفرح والأغاني التي كانت تنشد حبًا في الوطن. لكن كلما حاولت التمسك بهذه الذكريات، كانت تشعر بأنها تبتعد عنها أكثر فأكثر، كأنها تنتمي لعالم لم يعد له وجود.

ومع مرور الوقت، بدأت مريم تدرك أن حلمها بعراق موحد لم يعد له مكان في هذا الواقع المظلم. كانت تحاول التمسك بهذا الحلم، لكن كان يتلاشى ببطء مع كل يوم يمر. كانت ترى كيف أن الناس قد تخلوا عن الوطن، وكيف أن الطائفية قد أصبحت السيف الذي يقسم البلاد. كانت ترى أن كل ما كانت تؤمن به قد انهار أمام عينيها، ولم يعد هناك شيء يمكنها أن تفعله.

في لحظة من اليأس العميق، جلست مريم في غرفتها، تحاول أن تفكر في المستقبل. كانت تعلم أن الأمور لن تتحسن، وأن العالم الذي كانت تحلم به قد انتهى. كانت تشعر بأن قلبها مثقل بالحزن، وبأنها تعيش في عالم لم يعد يعرف معنى السلام أو الوحدة. كانت تعلم أن كل ما تبقى لها هو الصراع من أجل البقاء، وأن هذا الصراع قد يستمر حتى آخر رمق في حياتها.

كانت الليالي تمر ببطء، وكان الظلام يغمر كل شيء من حولها. لم تعد تسمع سوى أصوات الاشتباكات والصرخات التي تمزق سكون الليل. كانت تشعر بأن الحياة قد تحولت إلى كابوس لا نهاية له، كابوس يجبرها

على مواجهة حقيقة مرة، وهي أن العراق الذي كانت تعرفه قد ضاع إلى الأبد. لم يكن هناك شيء يمكنها التمسك به، لم يكن هناك أمل يمكنها الاستمرار من أجله. كانت تشعر بأن كل شيء قد انتهى.

الجزء الثالث: النهاية المحتومة وفقدان الهوية

مع مرور الوقت، كانت الهوية الوطنية العراقية تذوب ببطء، مثل شمعة تذوب تحت وطأة الرياح العاتية. لم يعد هناك من يتحدث عن الوطن، لم يعد هناك من يرفع العلم بفخر. كان الجميع قد انقسموا إلى طوائف وقبائل، كل منهم يحتمي بجماعته، متجاهلين الوطن الذي كان يجمعهم يومًا.

أبو زيد، الذي كان يحاول حتى اللحظة الأخيرة أن يجمع الناس حول فكرة الوطن الواحد، وجد نفسه في النهاية وحيدًا. كان يتجول في الشوارع المدمرة، يرى الأعلام الطائفية ترفرف فوق المنازل، يسمع الشعارات التي تمجد الطائفة وتلعن الآخر. كان يعلم أن كل جهوده قد باءت بالفشل، وأن العراق الذي كان يعرفه قد اختفى إلى الأبد.

كان الناس قد تحولوا إلى ما يشبه الأشباح، يعيشون في خوف دائم من الآخر. لم يعد هناك مكان للثقة، لم يعد هناك مجال للحديث عن المستقبل. كانت الحياة قد تحولت إلى معركة دائمة من أجل البقاء، وكانت الطائفية هي السيف الذي يقسم الوطن ويمزق نسيجه الاجتماعي. كانت هذه الطائفية قد نجحت في إلغاء الهوية الوطنية، وجعلت من العراق مجموعة من الجماعات المتحاربة التي لا يجمعها شيء.

في تلك الأيام الأخيرة، عندما كانت الاشتباكات تزداد عنفًا ووحشية، كان أبو زيد يجلس في مسجده، يتأمل في المصحف الذي كان رفيقه الوحيد. كان يعلم أن لا شيء يمكن أن يغير ما حدث، وأن العراق قد ضاع إلى الأبد. كانت عيناه تملأهما الدموع، لكنه كان يعلم أن هذه الدموع لن تعيد ما فقده. كان يشعر بأن قلبه قد تحطم، وأنه لم يعد هناك شيء يستحق القتال من أجله.

وفي مكان آخر من المدينة، كانت مريم تعيش أيامها الأخيرة في صمت. كانت قد تخلت عن حلمها بعراق موحد، وعاشت فقط لتبقى على قيد الحياة. لم يعد لديها الأمل في المستقبل، ولم يعد لديها شيء تتمسك به. كانت ترى في كل يوم كيف أن الناس الذين كانوا جزءًا من حياتها قد تحولوا إلى أعداء، وكيف أن الوطن قد أصبح مجرد كلمة لا تحمل أي معنى.

في أحد الأيام، عندما كانت مريم تمشي في شوارع مدينتها المدمرة، رأت جثة رجل مسن ملقاة على جانب الطريق. كانت هذه الجثة لا تحمل أي علامة تميزها، لكنها كانت تعلم أن هذا الرجل كان يومًا ما جزءًا من هذا الوطن. كانت تشعر بأن هذا الرجل يمثل ما حدث للوطن، يمثل الموت البطيء للهوية الوطنية التي كانت تجمعهم يومًا.

وقفت مريم أمام هذه الجثة لبرهة، تفكر في كل ما حدث. كانت تعلم أن هذا هو المصير الذي ينتظر الجميع، أن الوطن قد تحول إلى مقبرة كبيرة، وأن الناس قد فقدوا هويتهم الوطنية إلى الأبد. لم يعد هناك من يتحدث عن العراق ككل، لم يعد هناك من يتحدث عن المستقبل. كان الجميع يعيشون في لحظة من الرعب الدائم، يخشون أن يكونوا هم التاليون.

وفي النهاية، عادت مريم إلى منزلها الصغير، جلست في غرفتها المظلمة، وحيدة مع أفكارها. كانت تعلم أن لا شيء سيعود كما كان، وأن الهوية الوطنية قد ضاعت إلى الأبد. كانت تشعر بأن قلبها قد تحطم، وأنها لم تعد قادرة على الاستمرار في القتال من أجل شيء لم يعد له وجود. كانت تعلم أن كل شيء قد انتهى، وأنها تعيش في عالم لم يعد يعرف معنى الوطن.

في تلك اللحظات الأخيرة، عندما كانت مريم تجلس في غرفتها، كانت تسمع أصوات الاشتباكات تقترب من منزلها. كانت تعلم أن الوقت قد حان لمغادرة هذا العالم، لكنها لم تكن تخشى الموت. كانت تشعر بأن الحياة قد أصبحت عبئًا ثقيلا، وأن الموت قد يكون الخلاص الوحيد لها. كانت تعلم أن كل ما عاشته، كل ما قاتلت من أجله، قد تبخر مثل الدخان.

وهكذا، مع مرور الوقت، كانت الهوية الوطنية العراقية تذوب في غياهب النسيان، مثل شمعة احترقت بالكامل. لم يعد هناك من يتحدث عن الوطن الواحد، ولم يعد هناك من يرفع العلم بفخر. كانت الطائفية قد انتصرت، وجعلت من العراق مجموعة من الجماعات المتحاربة، التي لا يجمعها شيء سوى الخوف والموت. كانت هذه هي النهاية الحتمية للوطن الذي كان يومًا ما رمزًا للحضارة والوحدة، لكنه في النهاية تحول إلى أطلال يحكمها الظلام.

الفصل السابع : الهروب من الجحيم

الجزء الأول : خيار الهروب واليأس المتزايد

مع مرور الوقت وتزايد حدة الفوضى ، بدأ العراقيون ينظرون إلى الهروب من بلادهم كخيار أخير يائس . العراق ، الذي كان يومًا وطنًا دافئًا ، تحول إلى ساحة معركة مستمرة ، حيث الحياة أصبحت مستحيلة لكل من بقي على أرضه . كانت الفوضى والعنف يجتاحان كل زاوية من زوايا البلاد ، مما جعل البقاء أشبه بالسجن المظلم الذي لا نهاية له . الأمل في مستقبل أفضل بدأ يتلاشى مع كل يوم يمر ، وكان الهروب هو السبيل الوحيد للخلاص من هذا الجحيم .

كانت إسراء واحدة من هؤلاء الذين عايشوا هذا الواقع المرير . في البداية ، كانت تحاول جاهدة الحفاظ على حياتها وحياة أطفالها وسط هذا الدمار ، لكنها كانت تدرك في قرارة نفسها أن الأمور تزداد سوءًا يومًا بعد يوم . لم يكن هناك من يحمي حياتهم ، ولم يكن هناك مكان آمن يلجأون إليه . كانت تعيش في خوف دائم ، تخشى على أطفالها من المصير الذي قد ينتظرهم في أي لحظة .

إسراء ، التي كانت تمتلك قوة داخلية لا حدود لها ، بدأت تشعر بأن هذه القوة تتآكل ببطء مع مرور الأيام . كانت ترى الجيران يختفون واحدًا تلو الآخر ، بعضهم هرب إلى أماكن مجهولة ، والبعض الآخر قُتل في الشوارع أو فقد في غياهب الفوضى . كانت تسمع قصصًا مأساوية عن عائلات حاولت الهروب وفشلت ، وتخشى أن يكون مصيرها ومصير أطفالها مشابهًا . ولكن على الرغم من كل ذلك ، كانت تعتقد أن محاولة الهروب قد تكون الفرصة الوحيدة التي بقيت لهم .

بدأت فكرة الهروب تتسلل إلى عقل إسراء كأمل يائس، كنافذة ضيقة قد تفتح لها طريقًا نحو النجاة. كانت تعلم أن المخاطر التي تواجهها كبيرة، ولكنها كانت ترى في هذا الخيار فرصة وحيدة لإنقاذ أطفالها من هذا الجحيم الذي يحيط بهم. لم تكن الحياة في العراق مجرد تحد، بل كانت معركة مستمرة من أجل البقاء، والهروب كان السبيل الوحيدً الذي يمكن أن ينقذهم.

في تلك الأثناء، كانت مريم تعيش صراعًا داخليًا مشابهًا. الشابة التي كانت يومًا ما تحلم بمستقبل مشرق في وطنها، وجدت نفسها عالقة في دوامة من العنف واليأس. بعد أن فقدت كل شيء تقريبًا، لم يبقَ أمامها سوى خيار الهروب. كانت ترى في البحر فرصة للخلاص، لكن البحر كان أيضًا يحمل في باطنه مخاطر لا حصر لها. كانت تسمع قصصًا عن قوارب الموت التي كانت تبتلع أرواح الناس، ولكنها كانت تشعر بأن المخاطرة بحياتها في محاولة الهروب كانت أقل قسوة من البقاء في هذا الجحيم.

كانت مريم تتخذ قرارها بعد الكثير من التفكير، بعد أن فقدت الأمل في أي تغيير للأفضل وان الموت يطل بشباكه عليها. كانت تعرف أن الرحلة ستكون محفوفة بالمخاطر، ولكنها كانت مستعدة لتحمل كل شيء من أجل فرصة للحياة خارج حدود هذا الوطن الذي تحول إلى مقبرة للأحلام. كانت ترى في الهروب وسيلة لإنقاذ ما تبقى من حياتها، وإن كانت تعرف أن هذه الرحلة قد تكون الأخيرة في حياتها.

ياسر، من ناحيته، كان يرى في الهروب فرصة للهروب من الحياة التي تحول فيها إلى مجرم صغير. بعد أن انغمس في عالم الجريمة والعنف، أدرك أن هذا الطريق لا يقود إلى شيء سوى الموت أو السجن. لم يكن

ياسر يريد أن ينتهي به الحال مثل أولئك الذين قُتلوا أو سُجنوا، لذلك قرر أن يهرب من هذا المصير المحتوم. كان يرى في الحدود التي تفصل العراق عن بقية العالم بوابة نحو حياة جديدة، لكن تلك البوابة كانت محاطة بالأسلاك الشائكة والجنود المسلحين.

كانت هذه الشخصيات الثلاث تعيش في عالم من الخوف والقلق، تحاول أن تجد سبيلا للخلاص من الجحيم الذي أصبح وطنها. كل منهم كان يحمل في قلبه أملا يائسًا، لكنهم جميعًا كانوا يعرفون أن الأمل وحده لا يكفي في هذا العالم القاسي. كان عليهم أن يتخذوا قرارات حاسمة، وأن يواجهوا مصيرهم بكل ما لديهم من قوة، على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أن الهروب قد يكون مجرد حلم مستحيل.

مع كل يوم يمر، كان عدد الذين يحاولون الهروب من البلاد يزداد. الطرق المؤدية إلى الحدود كانت تعج بالناس الذين يبحثون عن مخرج، عن فرصة أخيرة للنجاة. البعض كان ينجح في الوصول إلى بر الأمان، ولكن الكثيرين كانوا يسقطون على طول الطريق، إما بسبب الظروف القاسية أو بسبب الأيدي الغادرة التي كانت تستغل يأسهم.

كان الهروب بالنسبة للكثيرين مجرد خيار يائس، لكنه كان الخيار الوحيد الذي يمكنهم الاعتماد عليه. كان العراقيون يبيعون كل ما يملكون من أجل تأمين رحلة هروب محفوفة بالمخاطر، غالبًا ما كانت تنتهي بالفشل. كانت عصابات تجارة البشر تزدهر في هذا الفوضى، تستغل اليأس والخوف لجني الأرباح من أرواح الناس. كانت القوارب المتهالكة تمتلئ بالنساء والأطفال والرجال، الذين كانوا يتشبثون بالأمل كغريق يتشبث بقطعة خشب في بحر هائج.

مريم كانت واحدة من هؤلاء الذين قرروا المخاطرة بكل شيء من أجل الهروب عبر البحر. كانت تعلم أن الرحلة محفوفة بالمخاطر، ولكنها كانت ترى في البحر الأمل الأخير. جلست على شاطئ البحر في ليلة مظلمة، تنتظر القارب الذي سيحملها إلى عالم جديد. كانت الرياح تعصف بشعرها، وتحمل معها رائحة الملح والموت. كانت تسمع صوت الأمواج وهي تضرب الصخور، وكأنها تحذرها من الرحلة التي تنتظرها. لكنها كانت مصممة على المضي قدمًا، غير مبالية بالمخاطر التي قد تواجهها.

في تلك الليلة، عندما ظهر القارب في الأفق، شعرت مريم بمزيج من الخوف والأمل. كانت تعلم أن هذه اللحظة قد تكون الأخيرة، لكنها كانت تعلم أيضًا أنها قد تكون بداية لحياة جديدة. صعدت إلى القارب مع عشرات الآخرين، وجلست في الزاوية، تمسك بيدها حقيبة صغيرة تحتوي على كل ما تبقى لها في هذه الحياة. كانت الأمواج تتلاعب بالقارب، تحاول أن تجره إلى قاع البحر، لكن القارب كان يقاوم بشدة، يحمل معه أرواحًا تبحث عن الخلاص.

الجزء الثاني: قصص المأساة وتجارة البشر

ومع انطلاق القارب في البحر المظلم، كانت مريم تشعر بأن قلبها يزداد ثقلا مع كل موجة تضرب القارب. لم تكن وحدها في هذا الشعور، فقد كانت كل روح على متن هذا القارب تعيش صراعًا داخليًا مشابهًا. كانوا جميعًا يتشاركون في هذا الأمل المشترك في الوصول إلى بر الأمان، لكن الخوف من الموت كان يسيطر على عقولهم. كانوا يعلمون أن هذه الرحلة قد

تكون نهايتهم، لكنهم كانوا مستعدين لمواجهة المصير المحتوم، لأن البقاء في العراق كان بالنسبة لهم بمثابة موت بطيء.

تجارة البشر كانت تزدهر في هذا الوقت، مستفيدة من يأس الناس وحاجتهم إلى الهروب. كان السماسرة يعدون الناس بوعود زائفة، يعدونهم برحلات آمنة وأماكن جديدة مليئة بالفرص. ولكن الحقيقة كانت مختلفة تمامًا. القوارب التي كانوا يستخدمونها للهروب كانت قوارب متهالكة، غير صالحة للإبحار في المياه العميقة. كانت مكتظة بالناس، بلا طعام أو ماء كافٍ، وبلا ضمانات للنجاة.

كان السماسرة يعرفون أنهم يتعاملون مع أرواح يائسة، مستعدة لفعل أي شيء للهرب من الجحيم. كانوا يجمعون أموالهم بلا ضمير، غير مهتمين بمصير هؤلاء الذين يخاطرون بحياتهم على متن قواربهم. كانت حياتهم بلا قيمة في نظر هؤلاء التجار، الذين كانوا يرون في الفوضى فرصة للربح السريع. كانت هذه التجارة القذرة تزدهر في وقت كانت فيه الإنسانية تموت ببطء في كل زاوية من زوايا العراق.

على متن القارب، كانت مريم تتشبث بحقيبتها الصغيرة، وكأنها تحمل معها كل أملها في الحياة. كانت الأمواج تضرب القارب بقوة، تجعل الرحلة أكثر صعوبة وخطورة. كانت تسمع صلوات وهمسات من حولها، أناس يطلبون الرحمة من الله، وآخرون يبكون بصمت، يعلمون أن كل لحظة قد تكون الأخيرة. كانت الرياح تعصف بهم بلا رحمة، وكان القارب يتمايل كأنه قطعة خشب في بحر هائج.

ومع تقدم الرحلة، بدأت الأحوال تزداد سوءًا. كانت الأمواج تزداد عنفًا، والرياح تزداد قوة. كان القارب يصارع للبقاء على سطح الماء، بينما كان الركاب يتشبثون بما حولهم بكل ما لديهم من قوة. ولكن في

لحظة مأساوية، ارتفعت موجة عملاقة وضربت القارب بقوة، لتقلبه رأسًا على عقب. انقلب القارب، وانقلبت معه كل أحلام وأمال الذين كانوا على متنه.

في تلك اللحظة، كانت مريم تشعر بالمياه الباردة تغمرها، تجذبها إلى أسفل، نحو الأعماق المظلمة. حاولت أن تسبح، أن تقاوم التيار الذي كان يسحبها نحو القاع، لكنها كانت تعلم أن الأمر قد انتهى. لم يكن هناك أي فرصة للنجاة، ولم يكن هناك أحد ليساعدها. كانت وحيدة في هذا البحر الشاسع، تواجه مصيرها المحتوم. ومع آخر أنفاسها، شعرت بالهدوء يملأ قلبها، وكأنها قد وجدت السلام في النهاية. غابت مريم في الأعماق، تاركة خلفها عالمًا مليئًا بالعنف والفوضى، لكنها أيضًا تركت خلفها آمالا وأحلامًا لم تتحقق.

وفي مكان آخر، كان حسين يحاول الهروب عبر الحدود البرية. بعد أن شاهد المدينة تتحول إلى جحيم لا يطاق، قرر أن يجرب حظه في الهروب عبر الطرق البرية. كانت الحدود مليئة بالحواجز والمخاطر، وكان يعلم أن محاولته قد تكون فاشلة، لكنه كان يشعر بأنه لا يملك خياراً آخر. كان طريقه محفوفًا بالخطر، حيث كانت الحدود محروسة بعناية من قبل القوات العسكرية والمليشيات المسلحة.

في طريقه نحو الحدود، كان حسين يلتقي بأشخاص آخرين يحاولون الهروب أيضًا. كانوا جميعًا يائسين، يبحثون عن فرصة للخلاص من الجحيم الذي أصبح وطنهم. كانت الرحلة شاقة وطويلة، مليئة بالمخاطر والمفاجآت غير السارة. لكن حسين كان مصممًا على الوصول إلى وجهته، على الرغم من كل شيء.

وعندما وصل إلى الحدود، كان يعتقد أنه قد نجح، وأنه قد وجد طريقه نحو الحرية. لكن القوات التي كانت تحرس الحدود كانت تقف بالمرصاد. تم القبض على حسين، واقتيد إلى مركز احتجاز حيث واجه مصيراً أسود. لم يكن هناك أي فرصة للهرب هذه المرة، ولم يكن هناك أحد ليتدخل لمساعدته. في تلك اللحظة، عندما شعر بأن حياته تقترب من نهايتها، تذكر كل القرارات التي اتخذها وكل الطرق التي سلكها. لكنه لم يكن يشعر بأي ندم، بل كان يشعر بأنه قد فعل كل ما بوسعه للبقاء على قيد الحياة.

في مركز الاحتجاز، كانت الأوضاع لا تطاق. كانت الظروف غير إنسانية، والمعاملة قاسية للغاية. كان حسين يعلم أنه لن يخرج من هذا المكان حيًا، ولكنه كان يحاول التمسك ببعض الأمل. لكن في النهاية، كانت الوحشية هي التي حكمت مصيره. تم إعدامه بدون محاكمة، في مشهد من العنف البارد والقسوة التي لا تعرف رحمة. كان هذا هو النهاية لحياة حسين، الذي فقد إنسانيته في سبيل البقاء، ولكنه لم ينجح في النجاة من المصير الذي كان ينتظره.

الجزء الثالث: مأساة البقاء والمصير المحتوم

وفي الوقت الذي كانت فيه مريم تغرق في البحر وياسر يواجه الموت على الحدود، كانت إسراء تحاول هي الأخرى الهروب من العراق. بعد كل ما عانته، قررت أن تحاول الهروب مع أطفالها، لكن رحلتها كانت مليئة بالصعاب. على الرغم من كل الجهود التي بذلتها، فشلت محاولتها في النهاية، ووجدت نفسها مجبرة على البقاء في البلد الذي تحول إلى جحيم.

كانت إسراء تعرف أن محاولتها الهروب محفوفة بالمخاطر، لكنها كانت ترى في الرحلة فرصة لإنقاذ أطفالها من المصير المظلم الذي ينتظرهم. بعت كل ما تملكه من أجل تأمين مكان لها ولأطفالها في رحلة عبر الحدود. كانت الرحلة شاقة، والظروف صعبة للغاية. لكن إسراء كانت مملوءة بعزم لا يتزعزع، كانت تعرف أن هذه المحاولة قد تكون فرصتها الأخيرة للنجاة.

لكن الحظ لم يكن حليفها. عندما وصلت إلى الحدود، وجدت نفسها محاطة بجنود مسلحين ومليشيات لا تعرف الرحمة. تم القبض عليها مع أطفالها، وتم اقتيادهم إلى مركز احتجاز حيث كانت الظروف أصعب مما يمكن تخيله. كانت تعرف في تلك اللحظة أن محاولة الهروب قد انتهت بالفشل، وأن عليها الآن مواجهة مصيرها في العراق.

في مركز الاحتجاز، كانت الظروف قاسية للغاية. لم يكن هناك طعام كاف، ولم يكن هناك ماء نظيف. كانت المعاملة قاسية، وكانت إسراء تشعرً بأن كل لحظة تمر تأخذ منها جزءًا من حياتها. كانت ترى في عيون أطفالها الخوف والقلق، وكانت تحاول بكل ما لديها من قوة أن تبقيهم مطمئنين، لكنها كانت تعلم أن الأمر يزداد صعوبة يومًا بعد يوم.

بعد أيام من الاحتجاز، تم إطلاق سراحهم، لكنهم لم يعودوا إلى الحياة التي كانوا يعرفونها. كان العالم من حولهم قد تغير تمامًا، وكان العراق قد تحول إلى مكان لا يشبه ما كانوا يعرفونه من قبل. كانت إسراء تعلم أن الحياة لن تكون سهلة، ولكنها كانت متمسكة بالأمل في أن تتمكن من بناء حياة جديدة لأطفالها، حتى وإن كان ذلك يعني البقاء في هذا الجحيم.

كانت تعود إلى منزلها، تحمل معها أثقالا لا تحتمل من الفشل واليأس. كانت تعلم أن الهروب لم يعد خياراً، وأن عليها أن تواجه الواقع الذي

يحيط بها. لم يكن هناك مفر من هذا المصير، ولم يكن هناك مكان آخر تذهب إليه. كانت تعلم أن العراق قد أصبح مكانًا لا يمكن العيش فيه، ولكنها كانت تعلم أيضًا أنه لا يوجد خيار آخر.

في الليل، كانت إسراء تجلس بجانب أطفالها، تحاول تهدئتهم وهم يبكون من الخوف والجوع. كانت تعلم أن الحياة لن تعود إلى ما كانت عليه من قبل، وأن عليها أن تقبل هذا الواقع الجديد. كانت تشعر بثقل كبير على قلبها، وكانت تعلم أن كل يوم يمر يحمل معه المزيد من الألم والمعاناة.

لكن رغم كل شيء، كانت إسراء متمسكة بالأمل. كانت تعرف أن الحياة قد لا تمنحها الكثير، ولكنها كانت تأمل في أن تتمكن من الحفاظ على ما تبقى من إنسانيتها. كانت تعلم أن هذا العالم القاسي قد يأخذ منها الكثير، ولكنها كانت مصممة على أن تحافظ على روحها وروح أطفالها. كانت ترى فيهم الأمل الوحيد في مستقبل أفضل، وكانت مستعدة لفعل كل ما يلزم لضمان هذا المستقبل، حتى وإن كان ذلك يعني البقاء في العراق، في قلب الجحيم الذي تحول إليه وطنها.

الفصل الثامن: الأرض المحروقة

الجزء الأول: العراق يتحول إلى أرض محروقة

كانت السنوات تمر ببطء شديد، كأنها تعاند الزمن في سيره. العراق، هذا البلد الذي كان يومًا موطنًا للحضارة والازدهار، تحول إلى شيء لا يمكن التعرف عليه. لم يعد هناك شيء يذكر بالأيام الجميلة التي عاشها الناس، حيث كانت الشمس تشرق على أرض خصبة، ممتلئة بالحياة والأمل. اليوم، أصبحت هذه الأرض مجرّد ذكرى باهتة من الماضي، حيث تحولت إلى صحراء قاحلة، وأرض محروقة لا تحمل في طياتها سوى الموت واليأس.

في كل زاوية من زوايا البلاد، كان الخراب يسيطر على المشهد. المباني التي كانت شاهقة يومًا، أصبحت الآن هياكل مدمرة، تعصف بها الرياح التي تحمل معها رائحة الرماد. كان الناس يتجولون بين الأنقاض، يبحثون عن شيء يسد جوعهم أو يحميهم من البرد القارص، لكنهم لم يجدوا سوى البؤس والموت في كل مكان. كانت الأنهار التي كانت تروي الأرض وتغذي الناس قد جفت، ولم يبقَ منها سوى مسارات متعرجة من الطين المتشقق، تشهد على ما كان يومًا شريان الحياة لهذا الوطن.

السماء التي كانت تزينها السحب البيضاء، أصبحت الآن جائحة بالغيوم السوداء الثقيلة، كأنها تعكس حالة الأرض التي تحولت إلى جحيم. كانت الشمس بالكاد تستطيع اختراق هذه الغيوم، ولم يكن هناك سوى ضوء باهت يعم الأجواء، يزيد من شعور الناس باليأس والضياع. كانت الرياح تهب ببطء، محملة برائحة الموت التي أصبحت تملأ الهواء، وكانت تهمس في آذان الناس بأنها قد جاءت لتحمل أرواحهم إلى عالم آخر.

في هذا العالم المظلم، كانت الأمراض تنتشر كالنار في الهشيم، تتغلغل في الأجساد الضعيفة التي لم تعد تملك القدرة على المقاومة. لم يكن هناك دواء، ولم يكن هناك طبيب يعتني بالمرضى. كانت المستشفيات قد تحولت إلى خرائب، وأصبح الأطباء الذين كانوا يومًا ما يحملون الأمل للناس، مجرد ذكريات من الماضي. الناس كانوا يموتون في الشوارع، في منازلهم، وفي أي مكان يمكن أن تجد فيه الموت ينتظرهم.

إسراء، التي كانت تقاوم اليأس والجوع يومًا بعد يوم، وجدت نفسها في مواجهة النهاية الحتمية. كانت تعيش في منزلها المهدم، تحاول أن تجد ما يبقيها على قيد الحياة في هذا العالم الذي لم يعد يرحم. كان جسدها النحيل يكاد لا يقوى على الحركة، وكانت الأمراض تتسلل إلى جسدها ببطء، تضعفها مع كل يوم يمر. كانت تجلس وحيدة في زاوية من المنزل، تتأمل في حياتها التي تحولت إلى كابوس لا ينتهي. كانت ترى في كل زاوية من زوايا المنزل ذكريات من الماضي، لكنها كانت تعرف أن هذه الذكريات لن تعود أبدًا.

في الليالي الطويلة، كانت إسراء تغلق عينيها، محاولة الهروب من الواقع الذي تعيشه. كانت تتذكر أطفالها الذين فقدتهم، تتذكر ضحكاتهم وأصواتهم التي كانت تملأ المنزل بالحياة. لكن الآن، لم يكن هناك سوى الصمت والظلام. كانت تجلس في زاويتها، تمسك بقطعة قماش قديمة كانت تحتفظ بها من أيام كانت تعتني فيها بأطفالها. كانت تشم رائحتها، تحاول أن تسترجع شيئًا من تلك الأيام، لكن الرائحة كانت قد اختفت، مثلما اختفى كل شيء آخر في حياتها.

كان الجوع ينهش جسدها بلا رحمة، وكانت تعلم أن النهاية قد اقتربت. لم تكن تخشى الموت، بل كانت تنتظره كخلاص من هذا العذاب

المستمر. كانت تعرف أن لا أحد سيأتي لإنقاذها، وأن هذا العالم قد تخلى عنها كما تخلى عن الكثيرين من قبلها. كانت تشعر بأن كل شيء قد انتهى، وأنها مجرد شبح يتجول في هذه الأرض المحروقة.

وفي أحد الأيام، عندما كانت السماء ملبدة بالغيوم الثقيلة، لم تستطع إسراء النهوض من مكانها. كان جسدها قد استسلم أخيراً للجوع والأمراض. جلست في زاويتها المظلمة، تغمض عينيها وتتذكر وجه أطفالها للمرة الأخيرة. كانت تتمنى لو كان بإمكانها أن تكون معهم في هذه اللحظة، أن تحتضنهم وتخبرهم كم كانت تحبهم. لكن كل ما كان لديها هو الصمت والظلام.

في تلك اللحظة، عندما كانت الحياة تتسرب من جسدها ببطء، شعرت بالسلام. لم يعد هناك خوف ولا ألم، لم يعد هناك شيء يمكن أن يؤذيها بعد الآن. كانت تعلم أن هذا هو النهاية، وأنها ستغادر هذا العالم المحترق إلى مكان آخر. ومع آخر أنفاسها، ابتسمت، كأنها قد وجدت الخلاص أخيراً. وفي هذا المنزل المهدم، في هذه الأرض المحروقة، غادرت إسراء الحياة، تاركة خلفها كل الألم والمعاناة.

الجزء الثاني: المقبرة الجماعية ونهاية ياسر

بينما كانت إسراء تواجه نهايتها وحيدة في منزلها المهدم، كان ياسر يسير في طريق مختلف، طريق كان يقوده نحو نهايته الخاصة. الشاب الذي عاش حياة مليئة بالعنف والجريمة، كان يعلم أن النهاية قريبة. لم يعد هناك مكان للهروب، ولا مكان للاختباء. كان العالم من حوله ينهار، وكان يعلم أنه لا يمكنه النجاة من المصير الذي ينتظره.

بعد أن قضى سنوات في الجريمة والفوضى، وجد حسين نفسه محاصراً في أحد الأحياء المهجورة. كان الجوع قد أصبح رفيقًا دائمًا له، والأمراض كانت تلاحقه بلا هوادة. كان يعلم أن الموت قريب، لكنه لم يكن يعلم متى وأين سيأتي. كان يتجول بين الأنقاض، يبحث عن شيء يسد جوعه، ولكنه لم يجد سوى البؤس واليأس.

في أحد الأيام، وبينما كان ياسر يسير بين الأنقاض، سمع أصواتًا تأتي من بعيد. كانت الأصوات تقترب بسرعة، وكان بإمكانه تمييز صوت الجنود الذين كانوا يجوبون المنطقة بحثًا عن أي ناجين. كان يعلم أنهم لن يرحموه، وأنهم سيقتلونه بلا تردد إذا وجدوه. حاول الهروب، حاول أن يجد مكانًا يختبئ فيه، لكنه كان يعلم أن الأمر قد انتهى.

تم القبض على ياسر، وتم اقتياده إلى خارج المدينة، إلى مكان يعرفه الجميع بأنه مقبرة جماعية. كان يعلم أن هذا هو مصيره، وأنه لن يخرج من هذا المكان حيًا. كانت المقبرة مليئة بالجثث، جثث رجال ونساء وأطفال، جميعهم سقطوا ضحايا لهذا العالم المحترق. كانوا يُدفنون في حفرة جماعية، دون أي علامات أو قبور تميزهم. كانوا مجرد أرقام، مجرد ضحايا آخرين لهذه الفوضى.

عندما أُجبر ياسر على الوقوف على حافة الحفرة، لم يكن يشعر بالخوف. كان يشعر بالفراغ، كأنه قد تخلى عن كل شيء منذ زمن طويل. كان يعلم أن حياته لم تكن سوى سلسلة من القرارات الخاطئة، وكان يعلم أن هذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعه. لم يكن هناك ندم، لم يكن هناك حزن، فقط فراغ كامل.

في تلك اللحظة التي سبقت نهايته، تذكر ياسر كل ما مر به من قبل. تذكر اللحظات التي كان فيها على وشك الهروب، ولكن الفشل كان نصيبه. تذكر كيف تخلى عن مبادئه وأصدقائه في سبيل النجاة، لكنه في النهاية لم ينجو. كان يعلم أن هذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعه مقابل كل ما فعله. ولكن لم يكن هناك مكان للندم الآن.

وفي لحظة واحدة، عندما كان ياسر يقف على حافة الحفرة، سمع صوت الرصاص يقطع الهواء. لم يشعر بأي ألم، فقط شعور بالسلام يغمره. سقط جسده في الحفرة مع الآخرين، ليصبح جزءًا من هذه المقبرة الجماعية، جزءًا من هذا العالم الذي لم يعد يعرف الرحمة. وفي هذه اللحظة، انتهت حياة ياسر، الشاب الذي فقد إنسانيته في سبيل البقاء، ليجد نفسه في النهاية مدفونًا في مقبرة جماعية، لا تميزه عن غيره سوى الذكريات التي تركها خلفه.

الجزء الثالث: عزلة فلاح في المنفى

بينما كانت الأرض العراقية تتحول إلى جحيم محروق، كان فلاح يعيش حياة مختلفة تمامًا. الرجل الذي جمع ثروته من استغلال الفوضى والفساد، كان قد هرب إلى الخارج قبل أن يتحول العراق إلى أرض محروقة بالكامل. كان يعيش في منفى بعيد، بعيدًا عن أصوات الرصاص ورائحة الموت التي غمرت وطنه. لكنه على الرغم من ذلك، لم يكن يعيش في سعادة أو راحة.

في بداية هروبه، كان فلاح يشعر بالنصر. كان يرى في نفسه ذكاءً خارقًا، لأنه عرف كيف ينجو من الكارثة التي حلت ببلده. كان يعيش في قصر فخم، محاطًا بالترف والرفاهية التي جمعها من دماء وأرواح الآخرين. كان يأكل أفضل الطعام، ويشرب أفخر الشراب، بينما كان وطنه يغرق في الفوضى والموت. لكن شيئًا ما كان مفقودًا.

مع مرور الوقت، بدأ فلاح يشعر بفراغ كبير يملأ حياته. كان يعيش في عزلة تامة، لا أصدقاء ولا عائلة. كل من كانوا حوله كانوا يبتعدون عنه واحدًا تلو الآخر، إما بسبب موتهم أو بسبب خيانته لهم. كان القصر الفخم الذي يعيش فيه يبدو وكأنه سجن ذهبي، تحيط به جدران عالية تمنعه من التواصل مع العالم الخارجي. كان يعيش في وحدة قاتلة، لا يسمع سوى صدى خطواته في القاعات الفارغة.

كانت الليالي تمر ببطء شديد، وكان فلاح يجلس وحيدًا في قصره، يتأمل في حياته التي لم تعد تحمل أي معنى. كان يتذكر الوطن الذي تركه خلفه، يتذكر الناس الذين خانهم واستغلهم لتحقيق ثروته. كان يعلم أن كل ما جمعه لم يكن يستحق شيئًا الآن، لأن ما فقده كان أكبر بكثير. كان يعيش في عالم مليء بالترف، لكنه كان يفتقر إلى الروح والحياة.

في أحد الأيام، وبينما كان فلاح يجلس وحيداً في شرفته المطلة على البحر، بدأ يشعر بأن هذا البحر الشاسع الذي كان يعتبره رمزاً للحرية قد أصبح الآن رمزاً للوحدة والعزلة. كان ينظر إلى الأمواج التي كانت تتلاطم بالصخور، وكان يشعر بأنها تعكس حياته، حياة مليئة بالصراع والفوضى، لكنها فارغة من الداخل.

مع مرور الوقت، بدأت صحته تتدهور. كان الجسد الذي كان يومًا قويًا وممتلئًا بالحياة، يذبل ببطء. كان يشعر بأن كل ما كان يملكه من قوة وسلطة يتلاشى أمام عينيه، وأنه لم يعد يملك شيئًا يربطه بالحياة. كانت الوحدة تلتهمه من الداخل، وكان يعلم أن لا أحد سيأتي لإنقاذه. كان يعلم أنه سيواجه النهاية وحيداً، مثلما عاش حياته كلها.

وفي تلك الليالي الطويلة، عندما كان يجلس في غرفته المظلمة، كان يسمع أصواتًا تأتي من الماضي، أصوات الناس الذين خانهم، والذين تخلوا عنه. كانت هذه الأصوات تملأ رأسه، تحاصره من كل جانب، تمنعه من الهروب. كان يعلم أن هذه الأصوات لن تتوقف، وأنه سيعيش معها حتى النهاية.

في النهاية، عندما حلّ عليه الموت ببطء، لم يكن يشعر بالخوف أو الألم. كان يشعر فقط بالفراغ، فراغ الروح والحياة. كان يعلم أن النهاية قد جاءت، وأنه سيغادر هذا العالم وحيداً، كما عاش وحيداً. كان هذا هو الثمن الذي دفعه مقابل حياته الفارغة من المعنى، حياة جمع فيها الثروات ولكنه خسر فيها كل شيء آخر. وفي تلك اللحظة، عندما توقفت أنفاسه الأخيرة، غادر فلاح هذا العالم بلا صدى، تاركًا خلفه قصره الفخم وشبحًا من الذكريات التي لم يعد لها أي معنى.

وهكذا انتهت قصة فلاح، الرجل الذي اعتقد أنه نجا من الفوضى، لكنه في النهاية لم يستطع الهروب من نفسه. كان هذا هو الثمن الذي دفعه، ثمن الوحدة والعزلة، ثمن الحياة التي عاشها بلا هدف أو معنى. وبينما كانت الحياة تستمر في العراق المحروق، كانت ذكرى فلاح تتلاشى مع الرياح، مثلها مثل كل شيء آخر في هذا العالم الذي تحول إلى رماد.

الفصل التاسع المتاجرة باليأس

الجزء الأول: حسين وانسلاخه وجشع الاستغلال

في زوايا العالم المظلمة التي لم يعد ينيرها سوى بريق الطمع وجشع الإنسان، كان حسين يتحرك كظل بين أطلال المدن التي دمرتها الحرب والفوضى. هذا الرجل، الذي كان يوماً يعيش حياة بسيطة تحمل معها أعباء الماضي وحلم المستقبل، قد تحول إلى كائن مختلف تماماً، كائن يسعى وراء المال مهما كان الثمن. فلاح لم يعد يرى العالم بعيني الإنسان البسيط الذي كان يكافح من أجل لقمة عيشه. بل أصبح ينظر إلى العالم كسوق كبير، مليء بالفرص التي يجب استغلالها، حتى وإن كانت هذه الفرص تتطلب سحق من حوله.

قبل أن يتحول إلى تاجر في السوق السوداء، كان فلاح رجلاً يعرف معنى العائلة والعمل الشريف. كانت لديه ذكريات مليئة بالحب والدفء، ذكريات عن الأيام التي كان فيها يجتمع مع عائلته حول مائدة الطعام، يتحدثون عن أحلامهم وخططهم للمستقبل. ولكن تلك الأيام أصبحت جزءاً من الماضي، وشيئاً فشيئاً بدأت تلك الذكريات تتلاشى تحت وطأة الواقع القاسي. الحرب والفوضى لم تترك لحسين خياراً سوى أن يغير مساره، أن يتخلى عن مبادئه، وأن يبدأ رحلته في عالم السوق السوداء.

كانت السوق السوداء عالمًا آخر، عالم لا تحكمه القوانين أو القيم، بل تحكمه الحاجة والبقاء. هنا، كل شيء يُباع ويُشترى: من المواد الغذائية إلى الأدوية، ومن البنادق إلى الأرواح. حسين، الذي كان يمتلك ذكاءً فطريًا وحنكة في التعامل، وجد نفسه سريعًا يتأقلم مع هذا العالم الجديد. بدأ يتعلم كيف يستغل الظروف لصالحه، وكيف يحول معاناة الآخرين إلى مكاسب شخصية.

في البداية، كان يشعر بنوع من التأنيب، لكنه سرعان ما تعلم كيف يقمع هذا الصوت الداخلي الذي كان يذكره بإنسانيته. كان يخبر نفسه أن الجميع يفعلون ذلك، وأنه لا خيار أمامه سوى الانضمام إلى اللعبة إن أراد البقاء على قيد الحياة. كان يشاهد كيف يتحول الناس إلى وحوش تلتهم بعضها البعض في سبيل البقاء، وكيف أنهم على استعداد لفعل أي شيء للحصول على ما يحتاجونه. ومع مرور الوقت، أصبح حسين جزءاً من هذه اللعبة، وأصبح يستمتع بقدرته على التحكم في مصائر الآخرين.

في إحدى ليالي الشتاء الباردة، وبينما كان يتجول في أحد الأحياء المدمرة، رأى امرأة عجوز تجلس على عتبة بيتها المهدم، تحتضن ابنها المريض. كانت نظراتها تحمل ألمًا يفوق الوصف، وكانت تهمس بصلوات خافتة وهي تتوسل السماء لإنقاذ ابنها. عندما اقترب منها فلاح، عرض عليها دواءً نادرًا كان يعلم أنها تحتاجه بشدة، ولكنه في نفس الوقت كان يعلم أنها لا تستطيع دفع الثمن الذي يطلبه. نظر إليها ببرود، منتظرًا أن تقدم له كل ما تملك من أجل هذا الدواء.

كانت المرأة في حالة من اليأس المطلق، وكانت تدرك أن هذا الرجل هو الفرصة الأخيرة لإنقاذ ابنها. حاولت التفاوض معه، لكن حسين لم يكن ليقبل سوى بالثمن الذي حدده. في النهاية، باعت المرأة كل ما تملك، حتى ذكريات حياتها المعلقة في صورة وحيدة على جدار بيتها المهدم. كانت تعلم أنها تخسر كل شيء، ولكن لم يكن أمامها خيار آخر. غادر حسين المكان محملا بالمال، تاركًا وراءه روحًا محطمة، لكنه لم يكن يشعر بشيء. في تلك اللحظة، أدرك فلاح أنه لم يعد الشخص الذي كان يعرفه من قبل، وأن الطريق الذي سلكه لن يعيده أبدًا إلى حياته السابقة.

كانت السوق السوداء بالنسبة لحسين أكثر من مجرد مكان للبيع والشراء، كانت ملاذه الذي يجد فيه القوة والسيطرة. كان يجلس في زاوية مظلمة، محاطًا بحراسه، يعقد الصفقات التي تزيد من ثروته كل يوم. كان يرى في أعين الناس نظرات الخوف والرهبة، وكان يستمتع بهذا الشعور بالسلطة الذي يمنحه إياه المال. لكن شيئًا ما كان لا يزال يلاحقه في الليالي المظلمة، صوت خافت يذكره بأنه قد فقد شيئًا ثمينًا في هذه الرحلة، شيئًا لا يمكن شراؤه بالمال.

الجزء الثاني: جاسم وصراع البقاء

في الجانب الآخر من المدينة، كان هناك شخص آخر يعيش في ظل هذا العالم الجديد، شخص كان اليأس قد دفعه إلى اتخاذ قرارات لم يكن ليتخيلها يومًا. جاسم، الرجل الذي كان يعيش حياة بسيطة مع عائلته، وجد نفسه محاصرًا بين الفقر والجوع بعد أن دمرت الحرب كل شيء في حياته. لم يكن لديه سوى جسده كآخر أصوله المتبقية، وعندما جاءته الفرصة لبيع جزء منه من أجل البقاء، لم يكن أمامه خيار سوى القبول.

قبل أن تبتلع الحرب حياته، كان جاسم يعمل بجد في مصنع صغير، يشارك زملاءه الضحك والأحلام عن المستقبل. كان يحلم بأن يوفر حياة كريمة لأطفاله، وأن يرى ابنه الأكبر يتخرج من الجامعة. كانت تلك الأحلام هي التي تبقيه مستمرًا، حتى عندما كانت الحياة تبدو صعبة. لكن الحرب جاءت كالعاصفة، لم تترك له ولأسرته سوى الأنقاض والذكريات المؤلمة.

مع مرور الوقت، أصبح الجوع والبرد جزءًا لا يتجزأ من حياته اليومية. كان الأطفال يبكون كل ليلة من شدة الجوع، وزوجته بدأت تفقد صحتها شيئًا فشيئًا. كان يعلم أنه يجب أن يفعل شيئًا، أي شيء، من أجل إنقاذ أسرته. وعندما سمع عن عصابة تعرض مبالغ مالية مقابل بيع الأعضاء البشرية، عرف أن الوقت قد حان لاتخاذ قرار لم يكن يتصور أنه سيضطر لاتخاذه يومًا.

كانت الفكرة ترعبه، لكنه لم يكن يرى بديلاً. جسده، الذي كان يحافظ عليه بكل حرص طوال حياته، أصبح الآن مجرد سلعة يمكن بيعها من أجل البقاء. عندما توجه إلى المستودع المهجور الذي تحول إلى عيادة غير شرعية، كانت الأفكار تتلاطم في رأسه كأمواج عاتية. هل يمكن أن يفعل ذلك؟ هل يمكن أن يبيع جزءًا من نفسه ليتمكن من شراء الطعام لأطفاله؟ لكنه كان يعلم أن هذه الأسئلة لم تعد مهمة، لأن الحاجة كانت أقوى من كل شيء.

دخل جاسم إلى المستودع، حيث استقبله رجل بارد الملامح، يرتدي معطفًا أبيض ويعطي الأوامر بلهجة خالية من أي تعاطف. كان المكان يعج بالأصوات المزعجة، أصوات الأجهزة الطبية القديمة، وصراخ بعض الأشخاص الذين كانوا يخضعون للعمليات. كان الجو مشبعًا برائحة المعدن والدم، وكل شيء حوله كان يشير إلى أن هذا المكان ليس مكانًا للحياة، بل مكانًا للموت البطيء.

جلس جاسم أمام الرجل، وأصغى إلى عرض الأسعار الذي قُدم له بلهجة جافة: "الكلى بخمسين ألف دولار، الكبد بستين، العيون بعشرة آلاف لكل عين." كان الرجل يتحدث وكأنه يعرض عليه بيع بضاعة عادية، لكن جاسم كان يعلم أن ما يبيعه هو جزء من نفسه. تردد للحظة،

لكنه كان يعلم أن العودة إلى أطفاله خالي الوفاض تعني المزيد من المعاناة. وبعد لحظة من الصمت الثقيل، قرر جاسم أن يبيع إحدى كليتيه.

أخذوه إلى غرفة عمليات مظلمة، كانت الجدران متسخة، والأدوات الطبية تبدو قديمة وغير معقمة. حاول أن يغلق عينيه ويتخيل أنه في مكان آخر، لكن الألم كان حقيقيًا، والخوف كان يجتاح كل جزء من جسده. شعر بالبرودة تتسلل إلى قلبه، ومعها إحساس بالفراغ لم يعرفه من قبل. كان يعرف أن جزءًا منه سيموت في تلك الغرفة، وأنه لن يكون الشخص نفسه بعد اليوم.

استيقظ جاسم بعد العملية ليجد نفسه وحيدًا في غرفة باردة، جسده كان ينزف، وروحه كانت تشعر بأنها فقدت شيئًا لا يمكن تعويضه. أخذ المبلغ الذي دفعوه له، وكان يكفي لشراء بعض الطعام لأطفاله لبضعة أسابيع. لكن المال لم يكن قادرًا على ملء الفراغ الذي شعر به في صدره. كان يشعر بأنه لم يعد إنسانًا كاملاً، وأن جزءًا من روحه قد تركه إلى الأبد في تلك الغرفة المظلمة.

عاد جاسم إلى منزله بخطى ثقيلة، وهو يحمل المال في يده، لكنه كان يعلم أن هذا المال لن يعيد له ما فقده. كان الأطفال ينتظرونه بشغف، وكان يعلم أن هذا المال سيشتري لهم بعض الطعام، لكنه كان يعلم أيضًا أن الثمن كان باهظًا جدًا. جلس في زاوية الغرفة، ينظر إلى أطفاله وهم يأكلون، لكنه لم يكن يشعر بالراحة أو الفخر. كان يشعر بالمرارة، وكان يعلم أنه لن ينسى أبدًا ما فعله من أجل البقاء.

الجزء الثالث : انهيار القيم واستمرار المتاجرة باليأس

بينما كانت السوق السوداء تستمر في التوسع ، وتصبح جزءًا لا يتجزأ من حياة الناس ، كانت القيم الإنسانية تنهار أمام عيون الجميع . لم يعد هناك حديث عن الأخلاق أو الفضيلة ، فقد أصبحت الحياة معركة للبقاء ، حيث لا مكان للضعفاء أو للرحمة . في هذا العالم الذي تحكمه قوانين السوق السوداء ، لم يكن هناك شيء مقدس ، كل شيء كان يُباع ويُشترى ، حتى الكرامة نفسها .

في كل زاوية من زوايا المدينة ، كانت تُعقد الصفقات المظلمة ، وكانت الأيدي المرتجفة توقع على أوراق تضمن لها البقاء على قيد الحياة ليوم آخر . لم يكن هناك فرق بين الإنسان والبضاعة ، فكلاهما كان يُقدر بقيمة مالية . كانت الأعضاء البشرية تُباع كأي سلعة أخرى ، وكانت حياة الناس تتوقف على قدرة أجسادهم على تحمل الألم والنزيف .

حسين ، الذي كان يظن نفسه في أمان بين جدران ثروته المتزايدة ، كان يشاهد كيف أن الناس يبيعون أنفسهم ليشتروا يوماً آخر من الحياة . كان يرى وجوههم التي فقدت بريقها ، وكان يسمع قصصهم التي تفيض باليأس . لكنه لم يكن يشعر بأي شيء تجاههم ، فقد كان يعتبر نفسه فوق الجميع ، رجلاً نجح في البقاء بينما الآخرون سقطوا .

في إحدى الليالي ، وبينما كان حسين يجلس في منزله الفخم المسروق ، يتناول وجبة دسمة ، فكر للحظة في كل أولئك الذين باعوا أجزاء من أجسادهم ليتمكنوا من شراء لقمة طعام . شعر ببرودة في قلبه ، لكنه لم يسمح لهذا الشعور أن يتسلل إلى أعماقه . لم يكن لديه مكان للعاطفة في حياته ، فقد كانت حياته الآن تدور حول المال والسلطة ، وأي شيء آخر كان يعتبره ضعفًا .

لكن الحياة لم تكن تسير كما خطط لها حسين. ففي يوم من الأيام، وبينما كان يعقد إحدى صفقاته المظلمة، فوجئ بغارة من إحدى العصابات المنافسة. كان الهجوم سريعًا وشرسًا، ولم يمنح حسين وقتًا للتفكير أو الهرب. وجد نفسه محاصرًا بين جدران المستودع الذي كان يخبئ فيه بضائعه، وأصوات الرصاص تمزق الهواء من حوله.

في لحظة من الرعب، أدرك حسين أن المال الذي جمعه لم يكن له أي قيمة الآن. كانت حياته في خطر، ولم يكن هناك أي مبلغ مالي يمكنه أن ينقذه من هذه الورطة. حاول أن يهرب، أن يجد مخرجًا، لكن الأبواب كانت مغلقة، والحراس الذين كان يعتمد عليهم في الماضي كانوا قد هربوا وتركوه وحيدًا.

في تلك اللحظة، شعر حسين بشيء غريب يثقل قلبه. لم يكن الخوف من الموت، بل الخوف من الفراغ الذي سيتركه خلفه. كان يعلم أن حياته لم تكن سوى سلسلة من القرارات الخاطئة، وأنه الآن يواجه النهاية التي كان يهرب منها طوال الوقت. لم يكن هناك أحد ليدافع عنه، ولم يكن هناك أحد ليحزن عليه.

انتهت حياته كما عاشها، وحيدًا في مكان مظلم، حيث لم يكن هناك سوى صدى صرخاته يتردد بين الجدران الباردة. كانت هذه النهاية الحتمية لرجل باع كل شيء من أجل المال، ليجد نفسه في النهاية بلا شيء.

أما جاسم، الذي فقد جزءًا من جسده من أجل البقاء، فقد كان يجلس في منزله المتواضع، ينظر إلى عائلته التي نجت من الموت جوعًا بفضل تضحيته. لكن هذه التضحية كانت قد تركت أثرًا عميقًا في نفسه، أثرًا لن يزول أبدًا. كان يعلم أنه لم يعد نفس الشخص الذي كان من قبل، وأنه قد فقد شيئًا ثمينًا لن يعود أبدًا.

كان ينظر إلى أطفاله وهم يأكلون الطعام الذي اشتراه بمال بيع كليته، وكان يشعر بالمرارة تغمره. لم يكن يشعر بالرضا أو الفخر بتضحيته، بل كان يشعر بأنه قد خسر شيئًا أكبر من أن يعوضه المال. كان يعلم أن الحياة في هذا العالم قد حولته إلى شيء لم يعد يعرفه، وأنه لم يعد يملك سوى البقاء من أجل من يحبهم، حتى لو كان ذلك يعني التخلي عن جزء من نفسه.

في تلك الليلة، وبينما كان جاسم يجلس وحيداً في زاوية غرفته، شعر بشيء يثقل قلبه. لم يكن الحزن أو اليأس، بل كان شعوراً بالفراغ، فراغ لم يملأه شيء. كان يعلم أن الحياة التي كان يعرفها قد انتهت، وأنه قد أصبح جزءاً من هذا العالم الذي لم يعد يعرف الرحمة. لم يكن هناك مكان للأمل في قلبه، ولم يكن هناك شيء يمكنه أن يعيد له ما فقده.

وفي النهاية، جلس جاسم أمام المرآة، ينظر إلى وجهه الذي تغير مع الزمن، ويسترجع شريط حياته الذي مر كالعاصفة. كان يرى في عينيه نظرة لا يعرفها، نظرة رجل فقد نفسه في سبيل البقاء. كان يعلم أن ما فعله كان ضروريًا، لكنه كان يعلم أيضًا أن ما فقده لن يعود أبدًا.

وهكذا، مع مرور الوقت، كانت السوق السوداء والمتاجرة باليأس تستمر في تدمير ما تبقى من إنسانية الناس. لم يكن هناك رابحون في هذه اللعبة القاسية، بل كان الجميع يخسرون شيئًا ثمينًا من أنفسهم. كان اليأس هو السيد، وكانت الإنسانية هي الضحية التي سقطت أمامه، بلا حول ولا قوة.

الفصل العاشر: الذاكرة الممزقة

الجزء الأول: بداية تلاشي الذاكرة الجماعية

في وسط الركام والأنقاض، حيث كانت الأهوال اليومية تغزو حياة العراقيين بلا رحمة، كانت الذاكرة الجماعية للعراق تتلاشى ببطء، كأنها شبح يتلاشى في الضباب الكثيف. العراق، البلد الذي كان يومًا مهدًا للحضارة ومركزًا للعلم والفن، أصبح الآن أشبه بجسد يعاني من فقدان الذاكرة التدريجي. كل ذكرى، كل قصة، كانت تتعرض لخطر النسيان، وكأنها صفحات من كتاب تُقتلع واحدة تلو الأخرى وتُلقى في النيران.

المكتبات، التي كانت يومًا معابد المعرفة والثقافة، أصبحت هدفًا سهلا للجهل والعنف. تلك المكتبات التي كانت تحتضن بين جدرانها كنوزًا من الكتب والمخطوطات التي تحكي قصص آلاف السنين من تاريخ العراق، أصبحت الآن رمادًا يتطاير في الهواء. النيران كانت تلتهم الكتب بلا رحمة، تحولها إلى رماد يملأ السماء، ويحمل معه جزءًا من ذاكرة هذا الشعب إلى النسيان.

يمكن أن ترى النيران وهي تشتعل في المكتبات العريقة، مثل مكتبة بغداد التي كانت يومًا رمزًا للفكر والإبداع. الآن، أصبحت تلك المكتبة مجرد ركام، لم يبقَ منها سوى بعض الحجارة المتفحمة والرماد المتناثر. كانت رائحة الورق المحترق تملأ الهواء، كأنها تصرخ في وجه الجميع أن ما يحترق ليس مجرد كتب، بل هو جزء من روح الأمة، جزء من هويتها وذاكرتها التي تتلاشى مع كل صفحة تحترق.

لم تكن المكتبات وحدها التي تعرضت لهذا المصير. المعالم التاريخية، التي كانت شاهدة على عظمة العراق وأمجاده، لم تسلم هي الأخرى من

هذا الدمار الممنهج. تلك المعابد القديمة، التي كانت تُروى فيها الأساطير وتحكي فيها قصص الملوك القدماء، أصبحت الآن أكوامًا من الحجارة المتناثرة. التماثيل، التي كانت تقف شاهقة تعكس قوة الحضارات التي مرت من هنا، كانت تُسحق تحت أقدام الجهل والكراهية.

كانت المعالم التاريخية تُدمر بشكل منهجي، وكأن هناك يدًا خفية تسعى لطمس كل ما يربط هذا الشعب بماضيه. النقوش التي كانت تحكي قصص الأجداد كانت تمحى، والمساجد التي كانت تملأ السماء بأصوات الصلاة تحولت إلى هياكل مدمرة. كل حجر كان يسقط كان يعني ضياع جزء من الهوية، وكل نقش كان يمحى كان يعني فقدان قصة لن تُروى مجدداً.

في هذا المشهد المأساوي، كانت العادات والتقاليد التي تشكل جزءًا لا يتجزأ من الهوية الوطنية، تختفي ببطء. الأعياد التي كانت تجمع الناس، الأغاني التي كانت تُغنى في الأفراح، الطقوس التي كانت تمارس في المناسبات الدينية، كلها بدأت تتلاشى، وكأنها تُنسى بمرور الزمن. كان الجيل الجديد يكبر دون أن يعرف معنى تلك التقاليد، دون أن يحمل معه تلك القصص التي كانت تنتقل من جيل إلى آخر. كان الماضي يتحول إلى شيء غامض، لا يعرف عنه إلا القليل.

في أحد الأحياء المدمرة، كانت سجى تعيش هذا الواقع المأساوي بشكل يومي. كانت تعمل بجد على توثيق الأحداث التي تمر بها البلاد، كانت تعرف أن ما يحدث الآن يجب أن يُسجل، يجب أن يُحفظ للأجيال القادمة، حتى لا تضيع الحقيقة في زحمة الأكاذيب والتشويه. كانت تحمل معها كاميرتها الصغيرة، تلتقط الصور وتكتب الملاحظات، تحاول أن تحمي ما تبقى من ذاكرة هذا الوطن.

سجى كانت تدرك تمامًا أن هذه المهمة ليست سهلة، وكانت تشعر بثقل المسؤولية التي حملتها على عاتقها. كل صورة كانت تلتقطها، كل ملاحظة كانت تكتبها، كانت تحمل معها جزءًا من روحها، جزءًا من إيمانها بأن ما تفعله قد يكون الأمل الأخير في الحفاظ على جزء من ذاكرة هذا الشعب. لكن في أعماقها، كانت تعرف أن هذه المهمة محفوفة بالمخاطر.

كانت تعلم أن هناك من لا يريد لهذه الحقيقة أن تُعرف، من يسعى بكل قوة لمحو كل أثر للماضي. كانت تشعر بأن هناك عيونًا تراقبها، وأن كل خطوة تخطوها قد تكون الأخيرة. ومع ذلك، كانت تستمر، مدفوعة بإحساس قوي بالواجب، وبإيمان عميق بأن ما تفعله يستحق كل خطر قد تتعرض له.

في إحدى الليالي، بينما كانت سجى تجوب شوارع المدينة المدمرة، تلتقط الصور وتوثق ما تبقى من المعالم، شعرت بالخوف يتسلل إلى قلبها. كان الجو هادئًا بشكل غير طبيعي، وكانت تشعر بأن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام. فجأة، سمعت صوت خطوات خلفها، وحين التفتت، رأت مجموعة من الرجال المسلحين يقتربون منها بسرعة. أدركت سجى أن الخطر قد اقترب، وأنها قد لا تخرج من هذا المكان حية.

حاولت سجى الهروب، ركضت بكل ما أوتيت من قوة، لكنها كانت تعرف أن الأمل ضعيف. كان الرجال أسرع، وتمكنوا من اللحاق بها. أطلقوا عليها النار، فسقطت مريم على الأرض، بينما تناثرت أوراقها وصورها حولها. كانت تحاول الوصول إلى كاميرتها التي سقطت بعيدًا عنها، كانت تعرف أن هذه الكاميرا تحمل كل ما وثقته من ذاكرة هذا

الوطن. لكن جسدها لم يعد يستجيب، كانت تشعر بأن الحياة تتسرب منها ببطء.

في تلك اللحظة، بينما كانت الحياة تتلاشى من جسدها، لم تكن تفكر في الموت، بل كانت تفكر في كل تلك الصور التي لن تراها الأجيال القادمة. كانت تعرف أن ما كانت تحاول توثيقه قد يُفقد إلى الأبد، وأن كل تلك القصص التي كانت تحاول أن تحفظها ستضيع معها. كانت تشعر بالحزن، ليس من أجل نفسها، بل من أجل وطنها الذي كان يفقد ذاكرته ببطء، وكأنها تموت معه.

الجزء الثاني: إسراء وتحدي الذاكرة

بينما كانت سجى تخوض معركتها الصامتة للحفاظ على ما تبقى من ذاكرة العراق، كانت إيلاف تعيش في مكان آخر من المدينة، تحاول بشتى الطرق أن تبقي على تلك الذكريات حية في قلوب أطفالها. إيلاف، الأم التي فقدت كل شيء تقريبًا، لم يكن لديها سوى قصص الماضي لترويها لأطفالها في محاولة يائسة للحفاظ على شيء من الهوية التي كانت تشعر أنها تتلاشى.

كانت تجلس كل ليلة بجانب أطفالها، تجمعهم حولها في زاوية من المنزل المتهدم، وتحكي لهم عن العراق الذي لم يعرفوه. كانت تخبرهم عن الأيام التي كانت فيها بغداد مدينة مليئة بالحدائق والمساجد، عن نهر دجلة الذي كان يتلألأ تحت ضوء الشمس، وعن الأسواق التي كانت تعج بالتجار والزوار من كل حدب وصوب. كانت تحاول أن تجعلهم يتخيلون تلك الصور، رغم أنهم لم يروا شيئًا من هذا بأعينهم.

لكن إيلاف كانت تعلم في قرارة نفسها أن هذه القصص لم تكن كافية. كانت ترى في عيون أطفالها نظرات الحيرة، كأنهم لا يستطيعون فهم ما تقوله. كانت تعرف أن تلك القصص تبدو لهم كحكايات من زمن بعيد، كحكايات خيالية لا تمت لواقعهم بأي صلة. كانت تشعر بالحزن لأنها تعلم أن أطفالها لن يعرفوا العراق كما عرفته هي، وأنهم يكبرون في عالم لا يحمل في طياته سوى الفوضى والدمار.

في إحدى الليالي، بينما كانت تحكي لأطفالها قصة عن طفولتها في بغداد، توقفت فجأة. كانت تشعر بأن الكلمات تخونها، وأن الصور التي كانت في ذهنها بدأت تتلاشى. كانت تحاول أن تتذكر تفاصيل صغيرة، كالألوان التي كانت تزين الشوارع في الأعياد، أو الروائح التي كانت تملأ الأسواق، لكنها لم تستطع. كانت الذاكرة نفسها تتلاشى، وكانت تشعر بأنها تخسر شيئًا ثمينًا كلما حاولت أن تسترجع تلك الذكريات.

كان الأمر بالنسبة لإيلاف أشبه بمعركة داخلية ضد الزمن، معركة كانت تعلم أنها تخسرها ببطء. كان هذا الشعور بالعجز يتسلل إلى قلبها، كانت تشعر وكأنها تغرق في بحر من النسيان، بحر لا تستطيع السباحة فيه مهما حاولت. كان هذا الإدراك بأنها تفقد قدرتها على تذكر تفاصيل حياتها الماضية يجعلها تشعر بالخوف والقلق.

أدركت إيلاف حينها أن الذاكرة ليست شيئًا يمكن الحفاظ عليه بمجرد الحديث عنه. كانت تعرف أن الزمن قادر على محو حتى أقوى الذكريات، وأن ما كانت تحاول أن تنقله لأطفالها قد يتحول إلى مجرد حكايات بعيدة لا تحمل أي معنى حقيقي لهم. لكنها كانت تصر على الاستمرار، كانت تعلم أن هذا هو كل ما تبقى لها، وأنها لا تستطيع أن تسمح لهذا الماضي أن يضيع دون أن تحاول.

بدأت إيلاف تشعر بأن كل لحظة تقضيها في الحديث مع أطفالها عن الماضي هي معركة ضد الزمن. كانت تحاول أن تجعلهم يشعرون بعمق تلك الذكريات، أن يفهموا ما تعنيه تلك القصص، لكنها كانت تعلم أن هذا الأمر يزداد صعوبة يومًا بعد يوم. كانت تشعر بأنها تحاول الإمساك بالماء بيديها، وكلما حاولت أكثر، كلما انساب الماء من بين أصابعها.

في تلك الليالي الطويلة، كانت إيلاف تجلس في الظلام، تفكر في كل ما فقدته. كانت تتذكر كيف كانت الحياة في الماضي، وكيف أنها لم تكن تقدر تلك اللحظات حتى فقدتها. كانت تعلم أن العالم الذي تعيش فيه الآن ليس إلا ظلا باهتًا لما كان عليه، وأنها تعيش في عالم منسي، حيث لا شيء يبقى سوى الذكريات التي بدأت تتلاشى هي الأخرى.

لكن إيلاف كانت تعلم أيضًا أنها لن تستسلم. كانت تعلم أن عليها أن تقاوم، حتى لو كان ذلك يعني أن تقاوم الزمن نفسه. كانت تعلم أن ما تحاول فعله قد يبدو بلا فائدة، لكن بالنسبة لها، كان هذا هو كل ما تبقى. كانت تعلم أن الأطفال قد لا يفهمون الآن، لكن ربما، في يوم من الأيام، سيتذكرون تلك القصص ويعرفون قيمة ما فقدوه.

في إحدى الليالي، وبينما كانت إيلاف تحكي لأطفالها قصة عن طفولتها، توقف أحد أطفالها وسألها بصوت بريء: "ماما، هل كان هذا المكان حقيقيًا؟" كانت تلك الكلمات مثل سكين تخترق قلب إيلاف. كانت تعلم أن طفلها لم يعد يرى في تلك القصص شيئًا حقيقيًا، بل مجرد حكايات من الخيال. شعرت بالحزن العميق لأنها أدركت أن أطفالها بدأوا يفقدون ارتباطهم بالماضي، وأن تلك الذكريات التي كانت تحاول نقلها لهم بدأت تفقد معناها.

لكنها لم تسمح لليأس بأن يتسلل إلى قلبها. نظرت إلى طفلها وأجابت بصوت هادئ: "نعم، كان حقيقيًا، وكان جميلا جداً. وعندما تكبر، ستفهم أكثر وستشعر بمدى جمال ذلك المكان." كانت تحاول أن تبث الأمل في قلوب أطفالها، حتى لو كانت تعلم في قرارة نفسها أن هذا الأمل قد يكون واهيًا.

في تلك الليلة، بعد أن نام أطفالها، جلست إيلاف وحدها في الظلام، تفكر في كل تلك القصص التي روتها. كانت تعلم أن الزمن قد يمحو كل شيء، لكن الذاكرة هي التي تبقي الإنسان حيًا، هي التي تربطه بجذوره وبمن سبقوه. كانت تعلم أن ما تحاول فعله قد يبدو بلا فائدة، لكن بالنسبة لها، كان هذا هو كل ما تبقى.

كانت تشعر بأن مهمتها لم تعد مجرد سرد القصص، بل أصبحت معركة للحفاظ على هوية أطفالها. كانت تعلم أن الزمن قد يسرق منهم كل شيء، لكن الذاكرة هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحميهم. كانت تعلم أن ما تحاول نقله لهم ليس مجرد حكايات، بل هو جزء من هويتهم، جزء من تاريخهم الذي يجب أن يحافظوا عليه.

في تلك اللحظات الأخيرة، عندما كانت تقف أمام أطفالها وتحاول أن تحكي لهم عن الماضي، كانت تشعر بأن هناك شيئًا ما يُفقد، شيئًا لا يمكن استعادته. لكن في نفس الوقت، كانت تشعر بأن هناك شيئًا آخر يُبنى، شيئًا لا يمكن تدميره. كانت تعلم أن الذاكرة قد تتلاشى، لكن الروح التي تحمل تلك الذاكرة لن تموت أبداً.

الجزء الثالث: تدمير المعالم التاريخية واندثار العادات

في زاوية أخرى من العراق، كانت المعالم التاريخية، التي كانت يومًا ما شاهداً على عظمة الحضارات التي مرت من هنا، تتعرض للتدمير الممنهج. كانت تلك الأماكن، التي حملت في طياتها تاريخ الأمة، تُدمر بلا رحمة، وكأن هناك يداً خفية تسعى لطمس كل أثر لهذه الحضارة. كانت المعابد القديمة تحطم، والتماثيل تُسحق تحت أقدام الجهل، والمساجد تُشوه بفعل القنابل والنيران.

تلك المعالم التي كانت تقف شامخة، تعكس تاريخًا عريقًا وذاكرة جماعية تعود لآلاف السنين، أصبحت الآن مجرد أنقاض. كانت الأحجار تتساقط واحدة تلو الأخرى، والنقوش التي كانت تحكي قصص الأجداد تمحى من الوجود. كان كل حجر يسقط يمثل ضياع جزء من الهوية الوطنية، وكل نقش يمحى يعني فقدان قصة لن تُروى مجدداً.

كان الأمر بالنسبة للعراقيين أكثر من مجرد تدمير مادي، كان تدميراً للذاكرة الجماعية، تدميراً للهوية التي تربطهم بماضيهم وبجذورهم. كان هذا التدمير يعكس رغبة خبيثة في محو كل ما يربط هذا الشعب بتاريخه، وكأن هناك قوى تسعى لجعلهم يعيشون بلا ذاكرة، بلا جذور.

كانت تلك المعالم التاريخية تحمل في جدرانها قصصًا عن أجيال مضت، عن حضارات ازدهرت وسقطت، عن ملوك وعلماء وفلاسفة. كانت تلك القصص تروي تاريخًا طويلا من الصراع والازدهار، من السقوط والنهوض. لكن الآن، كانت تلك القصص تمحى كما يمحى الحبر عن الورق. كانت الأحجار تتساقط، وتتلاشى معها الذاكرة التي كانت تحميها. كان الدمار شاملاً، ولم يبقَ شيء ليذكر الناس بماضيهم.

في هذا المشهد المأساوي، كانت العادات والتقاليد التي تشكل جزءًا لا يتجزأ من الهوية الوطنية، تختفي أيضًا. الأعياد التي كانت تجمع الناس، الأغاني التي كانت تُغنى في الأفراح، الطقوس التي كانت تمارس في المناسبات الدينية، كلها بدأت تتلاشى، وكأنها تُنسى بمرور الزمن. كان الجيل الجديد يكبر دون أن يعرف معنى تلك التقاليد، دون أن يحمل معه تلك القصص التي كانت تنتقل من جيل إلى آخر. كان الماضي يتحول إلى شيء غامض، لا يعرف عنه إلا القليل.

إيلاف، التي كانت تعيش في أحد الأحياء البعيدة، كانت ترى كل هذا يحدث أمام عينيها. كانت تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تحافظ على تلك العادات والتقاليد، كانت تشعر بأن هذه هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على شيء من الهوية التي كانت تتلاشى ببطء. كانت تجمع أطفالها كل يوم، تحاول أن تعلمهم تلك الطقوس التي كانت تعرفها منذ طفولتها، لكن الأطفال كانوا يرون في هذه الطقوس شيئًا غريبًا، شيئًا لا يمت لواقعهم بأي صلة.

كانت إيلاف تشعر بالعجز، كانت ترى كيف أن الزمن كان يمحو كل شيء، وكيف أن الجيل الجديد كان يكبر دون أن يعرف شيئًا عن ماضيه. كانت تشعر بالحزن لأنها تعلم أن تلك العادات والتقاليد التي كانت تشكل جزءًا من حياتها قد تتحول إلى مجرد ذكرى بعيدة، أو حتى تُنسى تمامًا. لكنها كانت تعلم أيضًا أنها لا تستطيع الاستسلام، كانت تعلم أن عليها أن تستمر في المحاولة، حتى لو كان ذلك يبدو بلا فائدة.

في يوم من الأيام، وبينما كانت إيلاغ تحكي لأطفالها قصة عن احتفالات العيد في قريتها، شعرت بأن الكلمات تخونها. كانت تحاول أن تتذكر تفاصيل صغيرة، كالأغاني التي كانت تُغنى، أو الأطعمة التي كانت

تُعد، لكنها لم تستطع. كانت تشعر بأن تلك الذكريات نفسها بدأت تتلاشى، وكأنها تمحى بمرور الزمن. شعرت بالخوف، لأن هذا كان يعني أن الماضي نفسه قد يضيع معها.

لكن إيلاف لم تكن وحدها في هذا الخوف. كان هناك الكثيرون مثلها، الذين شعروا بأنهم يفقدون شيئًا ثمينًا لا يمكن تعويضه. كان هذا الخوف ينتشر كالنار في الهشيم، وكان الجميع يشعرون بأنهم يعيشون في عالم ينهار من حولهم. لم يكن هناك شيء يبقى ثابتًا، وكل شيء كان يتحول إلى رماد.

أدركت إيلاف أن الحفاظ على الذاكرة الجماعية لم يكن مجرد محاولة للحفاظ على الماضي، بل كان محاولة للحفاظ على ما تبقى من الهوية الوطنية. كانت تعلم أن الزمن قد يمحو كل شيء، لكن الذاكرة هي التي تبقي الإنسان حيًا، هي التي تربطه بجذوره وبمن سبقوه. كانت تعلم أن ما تحاول فعله قد يبدو بلا فائدة، لكن بالنسبة لها، كان هذا هو كل ما تبقى.

في تلك اللحظات الأخيرة، عندما كانت تقف أمام أطفالها وتحاول أن تحكي لهم عن الماضي، كانت تشعر بأن هناك شيئًا ما يُفقد، شيئًا لا يمكن استعادته. لكن في نفس الوقت، كانت تشعر بأن هناك شيئًا آخر يُبنى، شيئًا لا يمكن تدميره. كانت تعلم أن الذاكرة قد تتلاشى، لكن الروح التي تحمل تلك الذاكرة لن تموت أبدًا.

الجزء الرابع : رماد الذاكرة وجذور الهوية

بينما كانت ألسنة اللهب تلتهم المكتبات والمعالم التاريخية، وتحرق معها آخر ما تبقى من أوراق التاريخ، كانت هناك مقاومة خفية تنبض في قلوب بعض العراقيين الذين أدركوا أن فقدان الذاكرة يعني فقدان الهوية. في زوايا بعيدة من البلاد، حيث لم تصل بعد أيدي الدمار، كانت تلك الجهود الصغيرة التي تسعى للحفاظ على ما تبقى من الذاكرة تجد طريقها بصعوبة، لكنها لم تتوقف أبدًا.

كانت تلك الجهود تتجسد في أشخاص مثل سجى، إيلاف، الذين أدركوا أن ما يفعلونه قد لا يُعيد العراق إلى ما كان عليه، لكن على الأقل، سيحفظ جزءًا صغيرًا من تاريخه وهويته. كانت تلك الجهود تبدو وكأنها تقاوم قوة عاتية تسعى لطمس كل شيء، لكنها لم تكن تعرف الاستسلام.

في إحدى القرى النائية، كان هناك شاب صغير يُدعى سامر، كان يعيش مع جدته التي كانت تحكي له كل ليلة قصصًا عن العراق القديم، عن الحضارات التي ازدهرت على هذه الأرض، وعن الأبطال الذين دافعوا عن وطنهم حتى آخر قطرة دم. كانت تلك القصص تحفر في ذاكرة سامر كما تحفر الكلمات على الحجر. كان يعلم أن هذه القصص هي كل ما تبقى له من تاريخه، وكان يشعر بمسؤولية كبيرة في الحفاظ عليها.

كانت الجدة، التي عاشت كل حياتها في تلك القرية، تعرف أنها تحمل في قلبها ذاكرة العراق التي تُروى عبر الأجيال. كانت تعرف أن الزمن قد يمحو كل شيء، لكن طالما استمرت في رواية تلك القصص، فإن جزءًا من الذاكرة سيبقى حيًا. كانت تحكي لسامر عن الأعياد التي كانت تُقام في بغداد، عن الأغاني التي كانت تُغنى في الأفراح، عن الحرفيين الذين كانوا

يصنعون السجاد الجميل، وعن الأيام التي كانت تُضيء فيها المدينة بالألوان.

لكن سامر لم يكن يرى هذا العالم بأم عينيه، كان يعرفه فقط من خلال القصص التي ترويها جدته. كان يتخيل تلك الصور في عقله، لكن كانت هناك فجوة بين ما يسمعه وما يراه في واقعه اليومي. كان يشعر بالحزن لأنه لم يعرف العراق الذي تتحدث عنه جدته، وكان يشعر بالخوف من أن هذا العراق قد يُنسى إلى الأبد.

في أحد الأيام، بينما كان سامر يلعب في الحقول القريبة من القرية، عثر على كتاب قديم، مدفون تحت التراب. كان هذا الكتاب يبدو قديمًا جدًا، وكانت صفحاته متآكلة بفعل الزمن، لكن الكتاب كان لا يزال يحتفظ ببعض الرسومات والنصوص. كان هذا الكتاب بمثابة كنز بالنسبة لسامر، كان يشعر بأنه وجد جزءًا من ذلك العالم الذي كانت جدته تتحدث عنه.

أخذ سامر الكتاب إلى جدته، التي بدورها تعرفت على الرسومات والنصوص. كانت تلك الرسومات تحكي قصصًا عن الأبطال والأساطير القديمة، وكانت النصوص تحمل حكمًا وأقوالا مأثورة. كان هذا الكتاب يمثل جزءًا من الذاكرة الجماعية التي كانوا يخشون ضياعها. كانت الجدة تعلم أن هذا الكتاب يحمل معه جزءًا من الروح العراقية، وكانت تعرف أن الحفاظ عليه يعني الحفاظ على جزء من الهوية.

بدأت الجدة في تعليم سامر كيف يقرأ النصوص القديمة، وكيف يفهم الرسومات. كانت تعلمه أن تلك الكلمات ليست مجرد كلمات، بل هي قصص وحكايات عن أجيال مضت، تركت بصمتها على هذه الأرض. كانت تعلمه أن هذا الكتاب ليس مجرد كتاب، بل هو جسر يربطهم بماضيهم، ويمنحهم القوة للبقاء في مواجهة كل ما يحدث من حولهم.

كان سامر يشعر بأن الكتاب يحمل في طياته سرًا، سرًا يحميه من النسيان. كان يعلم أن هذا الكتاب هو جزء من الذاكرة الجماعية التي يجب أن يحافظ عليها. في كل ليلة، كان يجلس بجانب جدته ويقرأ معها تلك النصوص، يحاول أن يفهم تلك الحكم والأقوال التي تحكي عن الحب، الشجاعة، والوفاء. كان يشعر بأنه يتعلم شيئًا جديدًا كل يوم، شيئًا يجعله أقرب إلى ذلك العالم الذي لم يعرفه إلا من خلال القصص.

لكن سامر كان يعلم أيضًا أن هذا الكتاب قد يكون واحدًا من القلائل الذين نجوا من النسيان. كان يعلم أن الحفاظ على هذا الكتاب يعني الحفاظ على جزء من هويته، وكان يشعر بمسؤولية كبيرة تجاهه. بدأ يشعر بأن هذا الكتاب ليس مجرد ملك له، بل هو ملك لكل العراقيين، لكل أولئك الذين فقدوا ذاكرتهم مع مرور الزمن.

في أحد الأيام، بينما كان سامر يجلس بجانب جدته ويقرأ معها إحدى القصص، توقف فجأة وقال: "جدتي، هل تعتقدين أن هذا الكتاب يمكن أن يعيد إلينا ما فقدناه؟" نظرت الجدة إلى سامر بعينيها الحكيمتين، وأجابته بصوت هادئ: "يا بني، الكتاب لا يعيد إلينا ما فقدناه، لكنه يذكرنا بما كنا عليه، ويمنحنا القوة للبقاء، حتى في أصعب الأوقات. الذاكرة هي ما يجعلنا من نحن، وما يحافظ على جذورنا حية".

كان سامر يعلم أن كلام جدته صحيح، لكنه كان يشعر بأن الحفاظ على هذا الكتاب هو أكثر من مجرد واجب، كان يشعر بأنه مهمة مقدسة. كان يعلم أن الزمن قد يمحو كل شيء، لكن طالما بقي هذا الكتاب، فإن جزءًا من الذاكرة سيبقى حيًا. كان يشعر بأن هذا الكتاب هو رمز للأمل، أمل في أن الذاكرة لن تمحى تمامًا، وأن الهوية ستبقى حية، حتى في ظل أصعب الظروف.

في النهاية، أدرك سامر أن ما كان يحاول فعله ليس مجرد حفاظ على كتاب قديم، بل هو حفاظ على جزء من الهوية الوطنية، جزء من الذاكرة الجماعية التي تربطهم بماضيهم وبجذورهم. كان يعلم أن هذه الذاكرة هي ما يمنحهم القوة للبقاء، وأن الحفاظ عليها هو السبيل الوحيد للنجاة من النسيان.

الجزء الخامس: الفقدان والمقاومة

مع مرور الزمن، بدأت مقاومة النسيان تصبح أصعب فأصعب. كان الدمار يزداد انتشارًا، والنسيان يلتهم كل شيء أمامه. في كل مكان، كانت ألسنة اللهب تلتهم الكتب والمخطوطات، تحيلها إلى رماد يتطاير في الهواء، يحمل معه آخر ما تبقى من ذكريات هذا الوطن. لكن في نفس الوقت، كانت هناك مقاومة خفية تنبض في قلوب أولئك الذين رفضوا الاستسلام لهذا النسيان.

كانت سجى، قبل أن تُقتل، تمثل هذه المقاومة بكل شجاعة. كانت تدرك تمامًا أنها تقف ضد قوة هائلة تسعى لطمس كل شيء، لكنها لم تكن تعرف الاستسلام. كانت تشعر بأن ما تفعله هو أكثر من مجرد توثيق للأحداث، بل هو محاولة للحفاظ على الروح العراقية، على الهوية التي كانت تتعرض للطمس الممنهج. كانت تحاول أن تحفظ ما تستطيع من ذكريات هذا الوطن، لكنها كانت تعلم أن الوقت ليس في صالحها.

عندما تعرضت سجى للهجوم وقتلت، كان ذلك بمثابة ضربة قاسية لتلك المقاومة. كان العالم ينهار من حولها، وكانت تشعر بأن ما كانت تحاول فعله قد يُنسى إلى الأبد. لكن الحقيقة هي أن سجى لم تمت تمامًا، بل

بقيت روحها حية في تلك الصور التي التقطتها، في تلك الأوراق التي كتبتها، في تلك الذكريات التي حاولت أن تحفظها للأجيال القادمة.

إيلاف، بدورها، كانت تشعر بأن مقاومتها للنسيان أصبحت أصعب. كانت تحكي لأطفالها قصصًا عن الماضي، لكن كانت تشعر بأن تلك القصص بدأت تفقد معناها. كانت تشعر بأن الزمن قد أصبح عدواً لا يُهزم، وأن كل كلمة تنطق بها قد تُنسى في اليوم التالي. لكنها كانت تعرف أيضًا أن الاستسلام ليس خياراً. كانت تشعر بأن ما تفعله قد يكون بلا فائدة، لكن بالنسبة لها، كان هذا هو كل ما تبقى.

في إحدى الليالي، بينما كانت إيلاف تجلس وحدها في الظلام، شعرت بأن كل شيء يتلاشى من حولها. كانت تشعر بأن الذكريات بدأت تتلاشى، وأنها قد تفقد القدرة على تذكر الماضي تمامًا. كان هذا الشعور بالعجز يغمرها، وكانت تشعر بأنها تغرق في بحر من النسيان. لكنها كانت تعرف أن الاستسلام لهذا الشعور يعني فقدان كل شيء.

الفصل الحادي عشر: الجنون الجماعي

الجزء الأول: انتشار الجنون وتفكك العقول

في ظل السواد الذي خيم على البلاد، ومع استمرار الانهيار الشامل لكل مظاهر الحياة، بدأت العقول تهرب من قبضة الواقع المرير. لم يعد الألم وحده سيد الموقف، بل أصبح الجنون هو النتيجة الحتمية لهذا اليأس الذي طال كل زاوية في البلاد. كان الجنون يتسلل ببطء، لكنه كان فعالا كالسُمّ، يضرب العقول التي عجزت عن إيجاد مخرج من هذا الكابوس المستمر. كان كل شيء يتداعى من حول الناس، حتى العقل نفسه.

في كل مكان، كان يمكن رؤية آثار هذا الجنون الجماعي. العيون التي كانت تلمع بالأمل في يوم من الأيام، أصبحت الآن خاوية، تائهة تبحث عن شيء لم يعد موجوداً. الوجوه التي كانت تفيض بالحياة أصبحت الآن مجرد أقنعة جامدة، لا تحمل سوى بقايا من ذكريات ماضية. كان الناس يسيرون في الشوارع كالأشباح، أجسادهم موجودة لكن عقولهم في مكان آخر، مكان لا يعرف سوى اليأس والضياع.

الهستيريا الجماعية كانت تتفجر كالبراكين في كل ركن من المدينة. كانت تجمعات الناس تتحول فجأة إلى مشاهد من الفوضى العارمة، حيث يصرخون ويبكون دون سبب واضح. كانت تلك النوبات تأتي بلا سابق إنذار، كأنها موجات من الجنون تجتاح الحشود، تلتهم كل من يقف في طريقها. لم يعد هناك مكان للأمان أو الاستقرار، فقد كانت العقول تفر من الواقع المرير إلى أحضان الجنون، وكأنها تجد فيه ملاذًا من العذاب المستمر.

في وسط هذا الجنون الجماعي، كان جاسم يتجول في الشوارع فاقداً لكل شيء. كان قد فقد عمله، منزله، وأسرته، ولم يبقَ له شيء يتعلق به. كان يتنقل من شارع إلى آخر كأنه يبحث عن شيء لا يعرف ما هو، كان يصرخ بأشياء غير مفهومة، يتحدث إلى نفسه، يتحدث إلى الهواء، وكأنه يحاول التواصل مع كائنات غير مرئية. كان وجهه يحمل علامات الجنون الواضحة، عيناه الواسعتان كانتا مليئتين بالخوف والهلع، كأنه يرى أشياء لا يراها الآخرون.

في لحظة من اللحظات، وبينما كان جاسم يتجول في شارع مهجور، توقف فجأة أمام حائط متهدم، وبدأ يضحك بشكل هستيري. كان يضحك وكأنه قد اكتشف نكتة عميقة لا يفهمها إلا هو، كان ضحكه يملأ المكان بصدى مرعب. مرّ الناس من حوله، بعضهم تجاهله، وبعضهم نظر إليه بخوف، لكن لم يقترب أحد. كان حسين قد فقد عقله تمامًا، لم يعد يعرف من هو، ولم يعد يهتم. كان كل شيء بالنسبة له قد انتهى، وكان يعيش الآن في عالم من صنع خياله المريض.

وفي زاوية أخرى من المدينة، كان هناك من يحاول استغلال هذا الجنون الجماعي لمصلحته الشخصية. أبو زيد، الرجل الذي كان يُعرف بالحكمة والرصانة، تحول الآن إلى شخصية دينية متطرفة. في ظل الفوضى والجنون، وجد أبو زيد في الدين وسيلة للسيطرة على العقول الضعيفة والمتهالكة. كان يخرج إلى الشوارع، يرتدي ثيابًا بالية، ويحمل في يده كتابًا مقدسًا، يصرخ في الناس بأن النهاية قريبة، وأن عليهم التوبة قبل فوات الأوان.

كان أبو زيد قد تحول من رجل دين يحث على المحبة والتسامح، إلى متنبئ غاضب يحذر الناس من غضب الله وعقاب الآخرة. كان يرى في هذا

الجنون فرصة لإعادة بناء سلطته التي فقدها مع انهيار النظام الاجتماعي. كان يستغل خوف الناس ويأسهم، كان يزرع في عقولهم فكرة أن كل هذا الدمار هو عقاب إلهي، وأن الجنون الذي يرونه من حولهم هو نتيجة لخطيئة عظيمة ارتكبوها. كان يحثهم على التوبة والصلاة، لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن ما يفعله هو مجرد استغلال للحظة، لحظة فقد فيها الناس قدرتهم على التفكير المنطقي.

الجزء الثاني: الطقوس الغريبة والانتحار الجماعي

في ظل هذا الجنون الذي اجتاح البلاد، بدأت تظهر طقوس غريبة لم تكن مألوفة من قبل. كان الناس، الذين فقدوا عقولهم وقدرتهم على التمييز بين الواقع والوهم، يبحثون عن مخرج من هذا العذاب، حتى لو كان هذا المخرج في شكل طقوس لا معنى لها. كانت تلك الطقوس تمارس في الخفاء أحيانًا، وفي العلن أحيانًا أخرى، وكانت تعكس مدى الانهيار النفسي والاجتماعي الذي وصلت إليه البلاد.

في أحد الأحياء الفقيرة، كان هناك مجموعة من الناس يجتمعون كل ليلة في مكان مهجور، يمارسون طقوسًا غريبة تحت ضوء القمر. كانوا يغنون أغان قديمة بأصوات منخفضة، ويرقصون رقصات بدائية، وكأنهم يحاوًلون التواصل مع قوى غامضة لا يفهمونها. كانت تلك الطقوس تبدو بلا معنى، لكن بالنسبة لهم، كانت وسيلة للهروب من الواقع الذي لم يعد يطاق. كانوا يشعرون بأن هذه الطقوس تمنحهم نوعًا من الطمأنينة المؤقتة، شعوراً بأنهم ما زالوا قادرين على التحكم في شيء ما، حتى لو كان ذلك وهمًا.

لكن هذه الطقوس لم تكن تقتصر على الأغاني والرقصات فقط. في بعض الأماكن، كانت تمارس طقوس أكثر عنفًا، طقوس كانت تهدف إلى تطهير النفس من الذنوب والخطايا من خلال الألم والمعاناة. كان الناس يجتمعون في مجموعات صغيرة، ويقومون بإيذاء أنفسهم بطرق مختلفة، يجلدون ظهورهم بالسلاسل، أو يحرقون أجسادهم بالنار، كل ذلك في محاولة يائسة للتكفير عن ذنوبهم المزعومة. كانوا يعتقدون أن هذا الألم سيخلصهم من الجنون الذي استولى على عقولهم، لكن الحقيقة كانت أن هذا الألم كان يزيدهم جنونًا فوق جنونهم.

في مكان آخر من المدينة، كانت هناك حالات انتحار جماعي تتزايد بشكل مرعب. كانت الأخبار تنتشر عن عائلات كاملة تقرر إنهاء حياتها معًا، بعد أن فقدوا كل أمل في المستقبل. كانوا يجتمعون في غرفة واحدة، يتعانقون، ويبتلعون السم معًا، وكأنهم يجدون في الموت راحة من عذاب الحياة. كانت تلك المشاهد تزيد من رعب الناس، وتدفع بالباقين إلى حافة الجنون. لم يعد هناك معنى للحياة في نظرهم، ولم يعد هناك شيء يستحق العيش من أجله.

في تلك اللحظات المأساوية، كان يمكن رؤية جاسم وهو يجلس وحيداً في زاوية مظلمة من منزله، يتحدث إلى نفسه بصوت خافت. كان جاسم قد فقد عقله تمامًا، لم يعد يعرف من هو، ولم يعد يهتم بما يحدث من حوله. كانت الأصوات تملأ رأسه، تخبره بأشياء غير مفهومة، تأمره بفعل أشياء غريبة. كان يشعر بأن هناك كائنات غير مرئية تراقبه، تتحدث إليه، تأمره بفعل أشياء لم يكن يفهمها.

في لحظة من اللحظات، قرر جاسم أن يستجيب لتلك الأصوات. بدأ في تنفيذ الطقوس التي كانت تأمره بها، كان يقوم بأفعال غريبة ومخيفة. كان

يرسم رموزًا غريبة على الجدران، ويضع أشياء عشوائية في زوايا الغرفة. كان يشعر بأن تلك الطقوس تمنحه نوعًا من القوة، قوة تجعله يتغلب على الجنون الذي يسيطر عليه. لكنه كان يعلم في أعماق قلبه أن ما يفعله ليس سوى هروب من الواقع، وأن الجنون الذي يعيشه هو نتيجة ليأسه المطلق.

وفي تلك اللحظة، بينما كان جاسم يواصل تنفيذ طقوسه الغريبة، سمع صوتًا يأتي من الخارج. كان صوت أقدام تقترب ببطء، ثم توقفت عند بابه. شعر بالخوف، لكنه لم يتحرك. في النهاية، انفتح الباب ببطء، وظهر أمامه شخص يرتدي ثيابًا بيضاء، ووجهه مغطى بغطاء أسود. لم يتحدث الشخص، بل وقف هناك فقط، يراقب جاسم بصمت.

كان جاسم يشعر بالخوف الشديد، لكنه لم يستطع التحرك. كانت عيناه موجهتان نحو الشخص، لكنه لم يستطع رؤية ملامحه بسبب الظلام. بعد لحظات من الصمت المطبق، اقترب الشخص من جاسم، ووضع يده على كتفه. شعر جاسم بالبرودة تسري في جسده، ثم اختفى الشخص فجأة كما ظهر، تاركًا جاسم في حالة من الهلع.

لم يكن جاسم يدرك ما حدث، لكن بعد تلك الليلة، زادت طقوسه الغريبة وتفاقم جنونه. بدأ يرى ذلك الشخص في كل مكان، يطارده في أحلامه، يهمس له بأشياء غامضة. لم يعد جاسم قادرًا على التمييز بين الحقيقة والوهم، كان يعيش في عالم من صنع خياله المريض.

الجزء الثالث : الجنون يبلغ ذروته واستغلال أبو زيد لليأس الجماعي

بينما كان جاسم يغرق في دوامة الجنون الخاصة به ، كان الجنون الجماعي يتفشى كالنار في الهشيم في جميع أنحاء المدينة . ومع كل يوم يمر ، كانت العقول تزداد تآكلا ، وكان الناس يفقدون قدرتهم على التمييز بين الواقع والوهم . لم يكن هناك مفر من هذا الجنون الذي أخذ يلتهم الجميع ، ولم يكن هناك من يملك القوة الكافية ليوقف هذا الزحف المدمر نحو الهاوية .

في الأحياء المهجورة ، كانت مشاهد الهستيريا الجماعية تتكرر بشكل مرعب . لم تعد تلك المشاهد مجرد نوبات فردية من الصراخ والبكاء ، بل تحولت إلى طقوس جماعية يشارك فيها الناس بلا وعي . كانوا يجتمعون في الساحات العامة ، يصرخون معًا ، يرقصون بشكل عشوائي ، ويقومون بأفعال لا تفسير لها ، وكأنهم يحاولون الفرار من الواقع الذي لم يعد يُحتمل . كانت تلك التجمعات تنتهي أحيانًا بانهيارات جماعية ، حيث يسقط الناس على الأرض ، منهكين ، فاقدين لكل طاقة للحياة .

في ظل هذا الجنون المتفشي ، برزت شخصية أبو زيد كزعيم ديني متطرف يستغل هذا اليأس الجماعي لمصلحته . كان أبو زيد ، الذي فقد سابقًا مصداقيته كرجل دين معتدل ، يجد الآن في هذا الجنون فرصة لاستعادة سلطته المفقودة . كان يدرك أن العقول المتهالكة واليائسة هي التربة الخصبة التي يمكنه من خلالها زرع أفكاره المتطرفة .

كان أبو زيد يظهر في الأماكن التي يتجمع فيها الناس لممارسة طقوسهم الغريبة ، ويبدأ في إلقاء خطب نارية تتحدث عن نهاية العالم . كان يزرع في عقول الناس فكرة أن كل هذا الجنون ليس سوى إشارة إلى قرب النهاية ، وأن ما يحدث من حولهم هو جزء من خطة إلهية لمعاقبة البشر

على ذنوبهم وخطاياهم. كان يصرخ في وجوههم بأنهم إذا أرادوا النجاة من هذا المصير المحتوم، فعليهم اتباع تعاليمه والتوبة من كل ذنوبهم.

لم يكن الناس في حالتهم تلك قادرين على التمييز بين الحقيقة والخداع. كانوا يسمعون كلمات أبو زيد وكأنها الحقيقة المطلقة، وكأنهم وجدوا أخيراً تفسيراً لكل ما يحدث. كان اليأس قد بلغ بهم حداً جعلهم مستعدين لتصديق أي شيء، طالما أنه يمنحهم أملا بالنجاة أو تفسيراً لمعاناتهم.

مع مرور الوقت، تحول أبو زيد إلى شخصية ذات نفوذ كبير. كان يملك القدرة على تحريك الجموع كما يشاء، كان يأمرهم فيطيعون، وكان يقودهم في طقوس دينية جديدة، بعضها كان يتسم بالعنف والتطرف. كانت تلك الطقوس تتضمن التضحية بأشياء ثمينة، وإلحاق الألم بالنفس كوسيلة للتطهير من الذنوب. كان أبو زيد يستغل كل لحظة يأس تمر بها الجموع ليزيد من تطرفهم وليثبت سلطته عليهم.

لكن في أعماق قلبه، كان أبو زيد يعلم أن ما يفعله هو استغلال خبيث للحظة ضعف عامة. كان يعلم أنه يلعب بالنار، وأن ما يفعله قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، لكنه كان مدفوعًا برغبته في السلطة والسيطرة. كان يشعر بأنه أصبح كالملك في هذا العالم المجنون، وكان يخشى أن يفقد هذه القوة إذا ما استعاد الناس عقولهم يومًا.

وفي خضم هذا الجنون الجماعي، بدأت تظهر حالات انتحار جماعي بشكل متزايد. كان الناس الذين لم يجدوا أي أمل في الحياة يتجمعون معًا، ويقررون إنهاء حياتهم بشكل جماعي. كانوا يعتقدون أن الموت هو السبيل الوحيد للهروب من هذا الجنون، وكانوا يجدون في الموت راحة من العذاب الذي لم يعد يُحتمل. كانت تلك الحالات تزيد من رعب

الناس وتدفعهم نحو مزيد من الجنون، وكأنها تثبت لهم أن النهاية حقًا قد اقتربت.

في أحد الأيام، وبينما كان أبو زيد يخطب في جمع من الناس، أعلن فجأة أن الوقت قد حان للتضحية النهائية. قال لهم إن النهاية قريبة جدًا، وأن عليهم أن يثبتوا إيمانهم بتضحية جماعية، تضحية تكون بمثابة تطهير نهائي من كل الخطايا. كان الناس في حالة من الهلع والارتباك، لكنهم كانوا أيضًا في حالة من الطاعة العمياء. كانوا مستعدين لفعل أي شيء يقوله أبو زيد، حتى لو كان ذلك يعني التضحية بأرواحهم.

وفي ليلة مظلمة، تجمع المئات من أتباع أبو زيد في ساحة عامة، حاملين الشموع والبخور، وهم يرددون تراتيل دينية بصوت منخفض. كانت الأجواء مشحونة بالتوتر والرعب، وكان الجميع يشعرون بأنهم على وشك القيام بشيء لا رجعة فيه. في تلك اللحظة، وقف أبو زيد على منصة مرتفعة، وبدأ يتحدث عن نهاية العالم وعن ضرورة التضحية النهائية. كان صوته يملأ المكان، وكانت كلماته تقطع الهواء كالسكاكين.

ومع انتهاء خطبته، أشار أبو زيد بيده إلى الجموع، وأمرهم بالاستعداد للتضحية. بدأ الناس يسيرون نحو وسط الساحة، حيث كانت هناك نار كبيرة مشتعلة، وكانت أعينهم مليئة بالرهبة والخوف. كانوا يعلمون أنهم على وشك فقدان كل شيء، لكنهم لم يكونوا قادرين على التراجع. كانوا مسيرين بقوة خفية، قوة اليأس الذي استولى على عقولهم.

لكن في تلك اللحظة، حدث شيء غير متوقع. أحد الأشخاص في الجموع، شاب صغير لم يتجاوز العشرين من عمره، بدأ يصرخ بشكل هستيري. كان يصرخ بأنهم جميعًا مخدوعون، بأن ما يفعله أبو زيد هو كذب وخداع. بدأ الشاب يحاول أن يوقظ الآخرين من غفلتهم، يحاول

أن يذكرهم بأنهم يمتلكون عقلا، وأنهم قادرون على التفكير واتخاذ قراراتهم بأنفسهم.

كانت تلك الصرخة كافية لإحداث حالة من الارتباك بين الجموع. بدأ الناس يتوقفون عن السير نحو النار، وبدأت العيون تتجه نحو الشاب الذي كان يصرخ بكل قوته. في تلك اللحظة، شعر أبو زيد بأن سلطته قد تهتز، وأنه على وشك فقدان السيطرة. حاول أن يتحدث، أن يستعيد السيطرة على الجموع، لكنه لم يستطع. كانت الصرخة قد أثرت في الناس، وأيقظت شيئًا في أعماقهم، شيئًا كانوا قد فقدوه منذ وقت طويل: الوعي.

بدأ الناس يتراجعون ببطء، وبدأت النار تخبو أمام أعينهم. في تلك اللحظة، أدركوا أنهم كانوا على وشك القيام بشيء لا يُغتفر، وأنهم كانوا يتبعون رجلاً فقد هو الآخر عقله بسبب اليأس والجنون. بدأوا في العودة إلى منازلهم، وكانوا يشعرون بأنهم قد استعادوا جزءًا من عقولهم، جزءًا من وعيهم الذي كاد يضيع في هذا الجنون الجماعي.

أما أبو زيد، فقد وقف على المنصة وحيدًا، يشعر بالهزيمة والانكسار. كان يعلم أن لحظة سلطته قد انتهت، وأن ما فعله قد يُغفر له أو لا يُغفر. لكنه كان يعلم أيضًا أنه، في تلك اللحظة، قد خسر كل شيء. الجنون الذي استغله لسنوات قد انقلب عليه، وتركه وحيدًا في عالم لم يعد يعرفه.

خاتمة: انهيار العقول واستعادة الوعي

في النهاية، ومع مرور الوقت، بدأ الناس يستعيدون جزءًا من عقولهم ووعيهم. لم يكن الأمر سهلاً، فقد كان الجنون قد ترك آثارًا عميقة في نفوسهم، وكان من الصعب التخلص من تلك الذكريات المروعة. لكنهم بدأوا في البحث عن طرق لإعادة بناء حياتهم، لإيجاد معنى جديد لما حدث.

كان جاسم لا يزال يتجول في الشوارع، لكنه لم يكن نفس الشخص الذي فقد عقله بالكامل. بدأ يتذكر شيئًا من حياته السابقة، بدأ يحاول أن يعيد ترتيب أفكاره المتناثرة. كان يعلم أن الطريق طويل وصعب، لكنه كان مصممًا على أن يجد طريقه للخروج من هذا الجنون.

أما جاسم، فقد وجد في النهاية الراحة في الموت. بعد أن غرق في الجنون لسنوات، قرر أن ينهي حياته بنفسه. لم يعد قادرًا على تحمل ما حدث له، ولم يعد يرى أي أمل في المستقبل. ترك رسالة قصيرة قبل أن يغادر هذا العالم، رسالة تقول: "آسف، لم أستطع التحمل أكثر. الجنون كان أقوى مني".

أما أبو زيد، فقد تراجع إلى الظل، واختفى عن الأنظار. لم يعد له دور يلعبه في هذا العالم الجديد الذي بدأ يتشكل بعد الجنون. كان يعلم أنه فقد كل شيء، وأن الجنون الذي استغله لسنوات قد انتهى به إلى العزلة والنسيان.

في النهاية، كان الجنون الذي اجتاح العراق ليس مجرد نتيجة للدمار والفوضى، بل كان انعكاسًا لليأس المطلق الذي استولى على العقول.

لكنه كان أيضًا درسًا قاسيًا للجميع، درسًا عن أهمية العقل والوعي، وعن مدى هشاشة الإنسان أمام اليأس.

الفصل الثاني عشر: الصمت المخيف

الجزء الأول: مشاهد الخراب والصمت القاتل

حين سقطت الشمس الأخيرة على هذا المكان الذي كان يومًا يعج بالحياة، ساد الصمت المخيف كما لو أن الكون بأسره قد قرر أن يتوقف عن التنفس. لم يعد هناك شيء يتحرك، لا أصوات ولا همسات، فقط فراغ ممتد إلى ما لا نهاية. الصمت هنا كان ثقيلا، محملا بأثقال الذكريات الضائعة والآمال المنسية، كأن كل جدار وكل حجر قد امتص كل صرخة وكل أنين، وحوّلها إلى سكون أبدي.

السماء فوق العراق لم تعد زرقاء كما كانت يومًا؛ أصبحت الآن داكنة، مليئة بسحب رمادية كئيبة، وكأنها مرآة تعكس الخراب الذي انتشر على الأرض. الشمس التي كانت تسطع بأشعتها الحارة أصبحت الآن مجرد قرص شاحب، محاطًا بهالة من الغبار الذي لا ينقطع، غبار يذكر بما كان هنا يومًا، لكنه الآن يغطي كل شيء كستار من النسيان.

على الأرض، امتدت الرمال كبحر لا يعرف حدودًا، تغطي ما تبقى من المدن والقرى التي كانت تعج بالحياة. المباني التي كانت تملأ الأفق تحولت إلى هياكل خاوية، أشباح من الخرسانة تآكلت بفعل الزمن. الجدران المتصدعة تحكي قصصًا صامتة عن معارك وأحلام تحطمت تحت وطأة القنابل، بينما الشوارع المليئة بالحطام لا تشهد سوى على غياب الحياة.

في زاوية بعيدة من المدينة، كانت هناك حديقة صغيرة، كانت يومًا ما ملاذًا للأطفال الذين كانوا يملؤونها بالضحك واللعب. الآن، لم يبقَ شيء سوى بقايا ألعاب متحطمة متناثرة بين العشب الذابل. الأرجوحة التي كانت تتأرجح بصخب قديمًا، أصبحت الآن تتمايل ببطء بفعل الرياح،

كأنها تودع زمنًا مضى ولن يعود. الدمى التي كانت تحتضنها الأيدي الصغيرة أصبحت الآن مجرد قطع قماش ممزقة ملقاة على الأرض، عيونها الزجاجية تحدق في اللاشيء، كما لو أنها تبحث عن أصحابها الذين لن يعودوا أبدًا.

على أطراف المدينة، كانت هناك جسر قديم يمتد عبر نهر جف ماؤه منذ زمن. هذا الجسر كان يومًا ما يعج بالمارة، السيارات والدراجات، الآن لم يبقَ منه سوى هيكل صدئ، تتآكله الرمال مع كل هبة ريح. كان النهر تحته كخيط جاف في أرض عطشى، لم يعد ينبض بالحياة، بل يحمل في طياته قصصًا عن الجفاف الذي التهم كل شيء. الجسر نفسه أصبح وكأنه معلق في الفراغ، لا يؤدي إلى أي مكان، مجرد طريق ضائع في بحر من الرمال.

في تلك اللحظات، كانت الرياح هي الوحيدة التي تملأ الفراغ، تعصف بالرمال، تدفعها لتغطي ما تبقى من آثار الحياة. كانت الرياح تتحرك بين المباني المدمرة، تحمل معها رمادًا وبقايا من أوراق متآكلة، أوراق كانت تحمل كلمات ربما كانت يومًا تحمل معان، لكنها الآن مجرد رموز لا تُقرأ. كانت الرياح تعزف لحنًا حزينًا، لحنًا لا يسمعه أحد، لكنه يظل صدى لزمان لم يعد له وجود.

على جانب الطريق، كان هناك بئر قديم، مغطى بالغبار والرمال. هذا البئر كان يومًا ما ينبض بالحياة، يوفر الماء للقرية المحيطة به، لكن الآن، لم يبقَ منه سوى فتحة مظلمة، لا تحمل سوى الفراغ. الجدران المحيطة به قد انهارت جزئيًا، والحجارة التي كانت تحميه قد تآكلت بفعل الزمن. لم يعد هناك صوت للماء يتدفق، لم يعد هناك من يشرب منه. هذا البئر

أصبح رمزًا للجفاف الذي ابتلع كل شيء، للموت الذي لم يترك أي أثر للحياة.

الجزء الثاني: الزمن والفراغ

في ظل هذا الخراب، كانت آثار الزمن بادية للعيان، لكن الزمن نفسه بدا وكأنه قد توقف. كل شيء في هذا المكان كان يحمل طابعًا أبديًا، كأنه مشهد من كابوس لا ينتهي. الزمن هنا لم يكن يسير كالمعتاد، بل كان يتسلل ببطء، يلتهم كل شيء في طريقه. كان هذا الزمن ثقيلا، لا يترك شيئًا إلا ويخفيه تحت وطأة الرمال والنسيان.

الطريق الذي كان يمتد بين المدن والقرى، الذي كان يومًا شريان الحياة، أصبح الآن مهجورًا، مغطى بالرمال، لا يُرى منه سوى خطوط باهتة تشير إلى ما كان يومًا طريقًا مزدحمًا بالمسافرين والتجار. لم يعد هناك من يسير على هذا الطريق، لم يعد هناك من يترك أثارًا لأقدامه. الطريق نفسه كان وكأنه يبحث عن نهاية لم يعد يستطيع الوصول إليها، خط باهت في بحر من الرمال، لا يؤدي إلى أي مكان سوى الفراغ.

وفي زاوية أخرى من هذه الأرض المهجورة، كان هناك منزل متهدم، جدرانه قد تآكلت بفعل الرياح والرمال. في الداخل، كانت الأرض مغطاة بطبقة سميكة من الغبار، لكن وسط هذا الخراب، كان هناك كرسي هزاز قديم، يتحرك ببطء بفعل الرياح التي تتسلل من النوافذ المكسورة. هذا الكرسي كان يومًا ما مقعداً لشخص كان يجلس عليه يتأمل الحياة، لكن الآن، لم يبقَ سوى هذا الكرسي المهجور، يتحرك بلا هدف، كأنه يحاول أن يتذكر من كان يجلس عليه.

في زاوية أخرى من المنزل، كانت هناك طاولة قديمة، عليها بقايا من وجبة لم تُستكمل. الأطباق كانت مغطاة بالغبار، وبقايا الطعام قد تحللت منذ زمن بعيد. كان يمكن تخيل المشهد الذي كان هنا قبل الكارثة: عائلة تجلس حول هذه الطاولة، تتناول وجبة معًا، تتحدث وتضحك، لكنها الآن مجرد ذكرى محاها الزمن. كان هذا المشهد يعكس حجم الفقدان، الفقدان الذي لا يمكن استعادته، كأن الحياة نفسها قد توقفت في منتصف لحظة لم تكتمل.

الظلال التي كانت تلقيها المباني المدمرة على الأرض كانت وكأنها أشباح من الماضي، تحوم في هذا المكان المهجور. هذه الظلال لم تكن مجرد انعكاسات لضوء الشمس، بل كانت تحمل في داخلها رمزية عميقة، كانت تمثل ذكريات الأيام التي كانت هنا، لكنها الآن تتحول إلى أشباح تلاحق المكان، تذكر بما كان ولن يعود. كانت هذه الظلال وكأنها ترفض الرحيل، تظل محاصرة في هذا المكان، تبحث عن شيء لا يمكنها العثور عليه.

الجزء الثالث: النهاية الصامتة وبذور المستقبل

ومع مرور الوقت، ومع تآكل كل شيء تحت وطأة هذا الصمت المخيف، تحول العراق إلى صحراء مهجورة لا حياة فيها. كانت الأرض التي كانت تعج بالحياة والنشاط قد تحولت إلى امتداد لا نهاية له من الرمال والجفاف. كانت السماء الزرقاء تمتد بلا حدود، ولكنها لم تكن تحمل أي وعد بالحياة. كانت الشمس تسطع على هذه الصحراء القاحلة، لكنها لم تكن تعطيها أي دفء، بل كانت تحرقها بلا رحمة.

في تلك الصحراء المهجورة، كانت المشاهد الأخيرة تعكس حجم الكارثة التي حلت بهذا البلد. لم يكن هناك أي أثر للبشر، لم يكن هناك أي صوت يدل على وجود حياة. كانت الأرض خالية تمامًا، لا شجر ولا نبات، فقط رمال ممتدة بلا نهاية. كانت تلك الرمال تحمل في طياتها بقايا من حضارة كانت هنا يومًا ما، بقايا من مدن كانت تعج بالحياة، لكنها الآن أصبحت مدفونة تحت هذه الرمال التي لا ترحم.

في أحد المشاهد، كان هناك طريق قديم يمتد عبر الصحراء، طريق كان يومًا ما يستخدمه المسافرون والتجار، طريق كان يصل بين المدن والقرى. لكن الآن، كان هذا الطريق مهجوراً، مغطى بالرمال، لا يمكن تمييزه إلا بصعوبة. كانت علامات الطريق القديمة قد اختفت، ولم يبقَ سوى هذا الامتداد الشاحب الذي لا يؤدي إلى أي مكان. كان هذا الطريق يشبه خطًا رسمته يد مجهولة على وجه الأرض، لكنه الآن خط فقد معناه.

في نهاية هذا الطريق، كان هناك هيكل قديم، ربما كان يومًا ما محطة وقود أو فندقًا صغيراً. لكن الآن، كان هذا الهيكل متهدمًا، محاطًا بالرمال من كل جانب. كانت الجدران قد انهارت جزئيًا، والسقف قد سقط على الأرض. كانت الأبواب مخلعة، والنوافذ مفتوحة على الهواء الطلق. لم يكن هناك أي أثر للحياة في هذا المكان، فقط بقايا من الخراب الذي تركته الحرب والمجاعات.

في الداخل، كانت الأرض مغطاة بالغبار، وكانت هناك بعض الأشياء متناثرة هنا وهناك، قطع أثاث قديمة، بقايا من آلات مكسورة، وأوراق متناثرة تحمل كلمات لم يعد بإمكان أحد قراءتها. كانت تلك الأشياء تحمل في طياتها آثاراً من الماضي، لكن ذلك الماضي كان قد انقضى، ولم

يعد له وجود. كانت تلك الأشياء مجرد بقايا من حضارة ميتة، شاهدة على ما كان هنا يومًا ما، لكنها الآن جزء من هذا الصمت المخيف.

في زاوية أخرى من الصحراء، كان هناك بئر آخر، بئر قديم جدًا، ربما يعود لآلاف السنين. كان هذا البئر مغطى بالرمال، ولم يعد يظهر منه سوى فتحة صغيرة. كانت المياه التي كانت في هذا البئر قد جفت منذ زمن طويل، ولم يبقَ منه سوى هذا العمق المظلم الذي لا نهاية له. كان هذا البئر يشبه الحفرة التي ابتلعت كل شيء، ولم تترك خلفها سوى هذا الفراغ.

في النهاية، كان المشهد الأخير يعكس الصورة النهائية لهذا البلد الذي كان يومًا ما ينبض بالحياة. كانت الكاميرا تتحرك ببطء عبر الصحراء، تلتقط تفاصيل هذا الخراب، هذا الصمت المخيف الذي لا نهاية له. كانت الرياح تعصف بالرمال، تحملها من مكان إلى آخر، لكنها لم تكن قادرة على إحياء ما مات. كانت تلك الرياح تبدو وكأنها تبحث عن شيء مفقود، شيء لن تجده أبدًا.

لكن وسط هذا الخراب، كانت هناك بذرة صغيرة، مدفونة تحت الرمال. كانت هذه البذرة تحمل في طياتها سرًا قديمًا، سرًا يتحدث عن الحياة التي كانت هنا، وعن الأمل الذي قد يعود يومًا ما. كانت هذه البذرة رمزًا للبداية الجديدة، بداية قد تأتي بعد هذا الصمت المخيف. ربما سيأتي يوم، ربما بعد سنوات أو حتى قرون، ويجد أحدهم هذه البذرة، ويزرعها من جديد. ربما ستنمو وتكبر، وتصبح شجرة تملأ هذه الأرض الميتة بالحياة مرة أخرى.

كانت الشمس تغيب ببطء، تاركة خلفها هذا العالم الميت في ظلام دامس. لكن في ذلك الظلام، كانت هناك بذرة صغيرة، مدفونة تحت

الرمال، تنتظر اللحظة المناسبة لتعود إلى الحياة. كان هذا الصمت المخيف هو كل ما تبقى الآن، لكن ربما، في مكان ما في هذا الصمت، كانت هناك بذرة تحمل الأمل بمستقبل جديد، مستقبل لم يمت بعد.

وهكذا، انتهت الحكاية، حكاية بلد كان يومًا ما قلب العالم، لكنه الآن أصبح مجرد صحراء خاوية، لا تحمل سوى الصمت المخيف والفراغ اللامتناهي. لكن وسط هذا الفراغ، كانت هناك بذرة صغيرة تحمل الأمل، أمل بأن الحياة قد تعود يومًا ما، وأن هذا الصمت المخيف قد يتحول إلى صوت الحياة من جديد.

الفصل الرابع عشر: الحلم الأخير

الجزء الأول: بزوغ الحلم

في وسط هذا الصمت المطلق، حيث كانت الرمال تغطي كل شيء، وتحول العراق إلى صحراء لا نهاية لها، كان هناك شيء غير متوقع. وسط هذا الفراغ الممتد، حيث لا شيء يتحرك ولا صوت يُسمع، كان هناك طفل صغير، ممدد على الأرض، بالكاد يستطيع التنفس. كانت الرمال تحيط به من كل جانب، لكنه كان لا يزال حيًا، وكان قلبه الصغير لا يزال ينبض، رغم كل شيء.

الطفل لم يكن يعرف كيف وصل إلى هنا، أو كم من الوقت مضى منذ آخر مرة رأى فيها بشراً آخرين. كل ما يعرفه الآن هو أنه وحده في هذا العالم، ولا شيء سوى الفراغ يمتد أمامه. لم يكن هناك طعام أو ماء، ولم يكن هناك مأوى يحميه من الشمس الحارقة أو البرد القارس في الليل. لكن رغم كل ذلك، كان الطفل لا يزال حيًا، وكان لا يزال يحمل في قلبه شيئًا من الأمل، حتى لو كان ذلك الأمل هشًا كخيط رفيع.

في لحظة ما، بين الوعي واللاوعي، بدأ الطفل يحلم. كان الحلم يبدو وكأنه يغمره بهدوء، يأخذه بعيداً عن هذا المكان الموحش، إلى مكان مختلف تمامًا. في حلمه، كان يرى نفسه في واحة جميلة، مليئة بالأشجار الخضراء، والمياه العذبة التي تتدفق في جداول صغيرة. كانت الطيور تغني في السماء، وكان النسيم العليل يلامس وجهه بلطف. كان كل شيء في هذا الحلم يبدو مثاليًا، كأنه عالم آخر، عالم لا يعرف فيه الخوف أو الجوع أو الوحدة.

كانت الواحة تبدو كجنة صغيرة في وسط الصحراء، مكان يفيض بالحياة والطاقة. كان الطفل يشعر بالراحة والسكينة، كأنه قد عاد إلى حضن والدته، بعيداً عن كل ما مر به من معاناة. كانت الأزهار تتفتح حوله، والأشجار تظله بأغصانها المتشابكة. كان يشعر بأن كل شيء على ما يرام، وأنه قد وجد أخيراً ملاذه الآمن.

الجزء الثاني: تلاشي الحلم

لكن كما هو حال كل الأحلام الجميلة، بدأ هذا الحلم يتلاشى ببطء. بدأت الألوان الزاهية التي كانت تملأ الواحة تتلاشى، وتحل محلها ظلال رمادية باهتة. الأشجار التي كانت تظله بدأت تتلاشى كأنها تتحول إلى غبار يتطاير مع الرياح. الطيور التي كانت تغني في السماء أصبحت الآن صامتة، ولم يبقَ منها سوى صدى بعيد، يختفي تدريجيًا.

الطفل، وهو لا يزال في الحلم، شعر بالخوف يتسلل إلى قلبه. كان يحاول أن يتمسك بالحلم، أن يبقي الواحة حية في مخيلته، لكنه كان يعلم في أعماقه أن هذا الحلم لن يستمر. بدأت الأرض تحت قدميه تتحول إلى رمال متحركة، تبتلع كل شيء من حولها. الماء الذي كان يتدفق في الجداول الصغيرة جف تمامًا، ولم يبقَ سوى هذا الفراغ القاسي الذي يعرفه جيداً.

وفي لحظة معينة، استيقظ الطفل فجأة، وهو يلهث بشدة، عيناه مفتوحتان على مصراعيهما، لكنه لم يكن يرى شيئًا سوى الرمال التي تحيط به من كل جانب. كان الحلم قد اختفى، ولم يبقَ منه سوى هذا الشعور بالخيبة والفقدان. كانت تلك الواحة التي حلم بها مجرد وهم، مجرد هروب مؤقت من الواقع الذي لم يتغير.

بدأ الطفل يدرك أين هو حقًا. لم يكن في واحة خضراء، بل كان في قلب الصحراء الموحشة، وحيدًا، بلا طعام أو ماء، بلا أي أمل في النجاة. كانت الأرض تحت جسده ساخنة، والشمس فوق رأسه قاسية، لا ترحم. كان يشعر بالجفاف في حلقه، وكان كل جزء من جسده يؤلمه. لكنه لم يكن يبكي، لم يكن هناك دموع يذرفها، فقد كان قد بكى كل دموعه منذ زمن بعيد.

الجزء الثالث: الإدراك والواقع

بينما كان الطفل يجلس هناك، في هذا الفراغ اللانهائي، شعر بشيء آخر يتسلل إلى قلبه. لم يكن هذا الشعور هو الأمل، بل كان شيئًا أعمق، شيئًا يشبه القبول. كان يدرك الآن أن هذا هو واقعه، وأنه لا يوجد مفر من هذا المكان. لم يكن هناك أي شخص قادم لإنقاذه، ولم يكن هناك أي مكان يهرب إليه. كان وحيدًا في هذا العالم، وكان يعرف ذلك.

لكن في نفس الوقت، شعر الطفل بنوع من السلام الداخلي، كأنه قد قبل مصيره. كان يعلم أن الحلم كان مجرد وهم، وأن الواحة لم تكن حقيقية. لكنه كان سعيدًا بأنه استطاع أن يحلم بها، حتى لو كان ذلك لفترة قصيرة. كانت تلك اللحظة في الحلم، تلك اللحظة التي شعر فيها بالراحة والأمان، كافية لتمنحه القوة لمواجهة الواقع.

بدأ الطفل يتحرك ببطء، وقف على قدميه بصعوبة. كانت الرمال تغطي جسده، وكان يشعر بالضعف، لكنه كان يعرف أنه يجب أن يستمر. لم يكن يعرف إلى أين يذهب، لكنه كان يعلم أنه لا يمكنه البقاء هنا. كان يجب عليه أن يتحرك، أن يحاول العثور على شيء، أي شيء يمنحه فرصة للنجاة.

كان يمشي ببطء، يجر قدميه بصعوبة على الرمال الساخنة. كانت الرياح تعصف من حوله، تحمل معها الرمال التي كانت تلسع وجهه وجسده، لكنها لم تكن تستطيع أن توقفه. كان الطفل يشعر بأنه يمشي في بحر من النار، لكنه كان يعرف أنه يجب أن يستمر. لم يكن هناك خيار آخر.

وفي تلك اللحظة، حين كان كل شيء يبدو ضائعًا، وحين كان الطفل على وشك الاستسلام، رأى شيئًا في الأفق. لم يكن يعرف ما هو، لكنه كان يرى شيئًا يلمع في المسافة. كان ذلك اللمعان ضئيلا، لكنه كان كافيًا ليمنحه سببًا للاستمرار. بدأ يمشي باتجاه ذلك الضوء، وكان قلبه الصغير ينبض بقوة.

كل خطوة كان يخطوها كانت تؤلمه، لكن الألم كان يدفعه للمضي قدمًا. كان يشعر بأن قدميه تغوصان في الرمال، لكن كان هناك شيء في داخله يدفعه للاستمرار. كان هذا الضوء في الأفق يشبه الحلم الذي رآه، لكنه كان يعرف الآن أنه ليس حلمًا. كان ذلك الضوء حقيقيًا، وكان كل ما يحتاج إليه هو الوصول إليه.

ومع كل خطوة كان يقترب أكثر، كان يشعر بأن القوة تعود إليه. لم يكن يعرف ما الذي ينتظره هناك، لكنه كان يعرف أنه يجب أن يصل. كان يعرف أن الحلم الذي رآه لم يكن سوى وهم، لكنه كان الآن يسير نحو شيء حقيقي. كان يسير نحو الأمل، حتى لو كان ذلك الأمل هشًا كخيط رفيع.

وفي النهاية، حين وصل إلى ذلك المكان، لم يجد واحة، ولم يجد مدينة، بل وجد نفسه أمام مرآة كبيرة، مغطاة بالغبار. كانت تلك المرآة هي الشيء الذي كان يلمع في الأفق، وكان الطفل يرى فيها صورته المنعكسة. كانت

صورته مشوهة، مغطاة بالرمال والغبار، لكن كان هناك شيء في عينيه لم يتغير: الأمل.

كان الطفل ينظر إلى نفسه في المرآة، ويرى ماضيه وحاضره ومستقبله. كان يرى كل ما مر به، كل ما فقده، لكنه كان يرى أيضًا كل ما يمكن أن يكون. كان يرى الأمل الذي لم يمت، رغم كل شيء. وفي تلك اللحظة، أدرك الطفل أن الحلم لم يكن وهمًا، بل كان جزءًا من الحقيقة، جزءًا من القوة التي بداخله، والتي ستدفعه للاستمرار، حتى النهاية.

وهكذا انتهى الحلم الأخير. لكنه لم يكن نهاية، بل بداية لشيء جديد. بداية لحياة قد تكون مختلفة، قد تكون مليئة بالصعاب، لكنها ستكون حقيقية. كان الطفل يعرف الآن أن الأمل لم يمت، وأنه يجب أن يستمر في البحث عن واحة حقيقية في هذا العالم الواسع. كان يعرف أن الطريق سيكون طويلا، لكنه كان مستعدًا للمضي قدمًا، مهما كانت التحديات.

وهكذا، في وسط هذا الفراغ اللامتناهي، في وسط هذا العالم الذي يبدو وكأنه قد نسي كل شيء، كان هناك طفل صغير يسير نحو المستقبل، يحمل في قلبه الحلم الأخير، الأمل الأخير، الذي لن يتلاشى أبدًا.

انتهت